فتح القسطنطينية

أولاً - تاريخ مدينة القسطنطينية

القسطنطينية مدينة لها جاذبية على مر التاريخ، وقيل أن سبب ذلك أنها خلفت مدينة روما كعاصمة للامبراطورية الرومانية العظيمة، وانتزعت منها شهرتها العريضة التي كانت تتباهى بها، وليس هذا فحسب، بل وأنها أصبحت في نحو قرن من الزمان تضارع روما بل تفوقها من حيث: جمال خططها، وعظمة صروحها، واتساع رقعتها، ووفرة ثرواتها، وترف مجتمعها[(١)].

وقد ذكر المؤرخون أن مدينة القسطنطينية قامت عند إنشائها فوق مواقع مدينة أقدم منها ببضعة قرون هي بيزنطية، التي يختلط اسمها مع اسم قسطنطينية، ويطلق في أحيان كثيرة على قسطنطينية ذاتها كعاصمة للدولة، وتغلب صفتها على مرحلة كبيرة من تاريخ الدولة الرومانية الشرقية وتعرف باسم الامبراطورية البيزنطية، ويرجع قيام هذا الثغر (بيزنطية) إلى ٦٥٧ سنة قبل الميلاد، حيث نزلت في هذا الموقع جماعة من المستعمرين اليونانيين بزعامة بحار يسمى (بيزاس) واستقرت به، وسميت المستعمرة الجديدة بيزنطية نسبة إلى مؤسسها بيزاس هذا.

وقد ازدرهرت ونمت وأصبحت ميناءاً بحريًا، ومركزًا تجاريًا كبيرًا، ولم تكن المدينة الجديدة كبيرة الرقعة، ولكنها كانت تمتاز بجمال الموقع وحصانته، وميناؤها يتسع لرسو أكبر السفن في ذلك الوقت، وكانت بموقعها الفريد في

(١) الدكتور/ عبد السلام عبد العزيز فهمي في كتابه: «السلطان محمد الفاتح» (ص٤٣).

مدخل البحر الأسود تشرف على تجارة هذا البحر القديم، كما وأن خليجها الطويل الممتد شمالاً أصبح يعرف بالقرن الذهبي، لوفرة أسماكه وجودتها، ولأنه كان مرسى للسفن المحملة بمختلف السلع والذخائر النفيسة من مختلف بلاد العالم القديم.

وظلت بيزنطية فترة طويلة تتنازع سيادتها الجمهوريات اليونانية خاصة أثينا واسبرطة، ثم استولت عليها مقدونية أيام الاسكندر الأكبر المقدوني في أوائل القرن الرابع قبل الميلاد، ولما توفي الأسكندر المقدوني استطاعت بيزنطة أن تسترد استقلالها، منتهزة فرصة تفتت الإمبراطورية المقدونية وتقسيمها بين قواد الأسكندر الذي مات فجأة دون أن يرسي قواعد حكم ثابت الأركان، ثم رأت مدينة بيزنطة أن تعقد حلفًا مع روما، ولكن الأخيرة ما لبث أن بسطت سلطانها عليها وجعلتها في عداد مستعمراتها، وفي ١٩٦سنه قبل الميلاد استولي عليها الأمبراطور سفيروس وقتل زعماءها والعديد من أهلها، وبدد تجارتها وهدم مبانيها وقوَّض أسوارها، لأنها كانت قد انضمت إلى خصومه خلال الحرب الأهلية التي نشبت بينه وبين منافسه (بسينيوس نيجر) حاكم سوريا[1].

وفي عهد الإمبراطور (كلوديس الثاني) (٢٦٨-٢٧٠م): استطاع أهل بيزنطة أن يدفعوا عنها غزو القوط. وفي خلال الحرب التي نشبت عقب حكم الإمبراطور (ديو كليشيان) بين قسطنطين الأكبر وأعدائه، لجأ (ليكلينوس) ـ أحد أولئك الخصوم ـ إلى بيزنطة فحاصره قسطنطين الأكبر بذلك شرق الإمبراطورية الرومانية وغربها، ومنذ أن استولى قسطنطين على مدينة بيزنطة سنة ٣٢٤م انصرف إلى تحصينها، وابتدأ في إقامة سورها، ثم احتفل بوضع

(١) المصدر السابق.

خطط العاصمة الرومانية الجديدة سنة ٣٢٨، وكان قسطنطين يتقدم بنفسه موكب المحتفلين سائرًا على قدميه، وفي يده رمح يرسم به حدود المدينة الجديدة ومواقع أسوارها وأبراجها، واختطها فوق موقع المدينة القديمة، لكن رقعتها كانت تفوق رقعة بيزنطية القديمة بكثير، فقد قامت بيزنطة فوق خمس تلال، أما قسطنطينية فقامت على سبع تلال، كان منها الخمسة التي قامت عليها بيزنطة من قبل.

وبذل قسطنطين جهدًا عظيمًا في تشييد عاصمته الجديدة وتجميلها، وحمل إليها كثيرًا من آثار روما وأثينا وصقلية وأنطاكية وغيرها من مدن الإمبراطورية الكبيرة، وغطى تلالها بالأبنية الفخمة، وفي اليوم الحادي عشر من مايو سنة ٣٣٠م افتتحت المدينة الجديدة بصفة رسمية وأصبحت عاصمة الإمبراطورية الرومانية، وسميت (روما الجديدة) وسُميت في نفس الوقت قسطنطينية تخليدًا لاسم مؤسسها، وكذلك استمر اسم بيزنطة القديم يطلق عليها، وتوِّج الإمبراطور قسطنطين في ميدان الهيدروم، ولا يزال هذا الميدان الشهير قائمًا إلى اليوم يذكرنا بما شهده من تعاقب الأحداث والدهور.

واستغرقت احتفالات التدشين أربعين يومًا، امتزجت بالطقوس الدينية النصرانية، ولأول مرة في تاريخ احتفالات أباطرة روما، وذلك لأن الإمبراطور قسطنطين كان أول قيصر روماني اعتنق النصرانية، فلقد اعتنقها في ٣١٢م، وأقام الامبراطور مع رجال بلاطه ومجلس دولته وهيئة الحكومة المركزية في العاصمة الجديدة التي حملت اسمه، كما توجه أرباب التراز من جميع أنحاء العالم، تاركين روما وباقي المدن القديمة، عندما علموا بهذه المشاريع الواسعة، مصطحبين معهم ذويهم وبواخر محملة بأمتعتهم المنزلية، وسرعان ما بُني بها أربعمائة قصر

وعدد من الحمامات العامة[١]، بلغت المائة والخمسين، وزاد عدد سكانها زيادة كبيرة حتى فاقت سكان روما نفسها.

وقد شيدت القسطنطينية لتكون مدينة نصرانية الصبغة، بينما ظلت روما حصنًا للديانة القديمة إلى وقت طويل، وبفصل الشخصية الجديدة الوقورة التي خلفتها عليها النصرانية فقد أخذت أطراف الجزء الشرقي من الدولة تتجه إليها وتتجمع حولها، وكذلك اتجهت قلوب النصارى من رعايا الدولة الرومانية نحو العاصمة الجديدة، وتطلعوا إليها كي تنقذهم وتحميهم من حكام روما الوثنيين الذي كانوا يناصبون النصرانية العداء، ويشتتون شمل معتنقيها. وانتهى الأمر بأن نشأ في هذا الجزء الشرقي وعي بشخصية مستقلة، مما حدا بالإمبراطور (تيودوسيوس الكبير) (٣٧٩-٣٥٩م) إلى تقسيم الإمبراطورية بين ولديه قبل وفاته إلى قسمين هما:

- الإمبراطورية الرومانية الغربية وعاصمتها روما.
- الإمبراطورية الرومانية الشرقية وعاصمتها القسطنطينية، لكي يتفرغ كل منهما للدفاع عن امبراطوريته، وقد تم ذلك في ٣٩٥ ميلادية.

وقد سقطت روما في أيدي البرابرة، وانتهت الإمبراطورية الرومانية الغربية، أما الإمبراطورية الرومانية الشرقية، والتي عرفت أيضًا باسم الإمبراطورية البيزنطية فقد ظلت قائمة بعد ذلك التقسيم أكثر من عشرة قرون بفضل مناعة عاصمتها القسطنطينية.

---

(١) د/ محمد عبدالله عنان «القسطنطينية» مقال «مجلة العربي» (العدد٩٧ - ديسمبر ١٩٦٦) الكويت.

ثانيًا ـ القسطنطينية والإسلام

قال رسول الله ﷺ : «**لتفتحنَّ القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم ذلك الجيش**»[(١)] .

يعتبر الرسول ﷺ بحديثه هذا أول قائد رسم بنفسه الخطة التمهيدية لاستيلاء الجيوش العربية على بلاد الشام وضمِّها إلى دولة الإسلام، ذلك أن النبي ﷺ حينما أرسل رسوله إلى صاحب بصرى ليعرض عليه دعوة الإسلام، وكان رسوله هو الحارث بن عمير الأزدي، فعرض له في مؤتة شرحبيل بن عمرو الغسَّاني أمير البلقاء[(٢)]، فقتله، وفي نفس السنة سنة ٨هـ / ٦٢٩م أرسل النبي ﷺ زيد بن حارثه على رأس جيش قوامه ثلاثة آلاف رجل إلى الجهات الشمالية الغربية من بلاد العرب، وكان الدافع إلى ذلك عدة أمور هي:

ـ واجب الأخذ بثأر الحارث بن عمير.

ـ أن يشعر الروم بقوة الإسلام والمسلمين.

ولما التقى المسلمون بالروم في مؤتة، ولم يحرزوا انتصاراً باهراً، وفهم الروم الأمر فهمًا خاطئًا عندما اعتبروا أن هذه الغارة تعد من غارات البدو الخاصة بالسلب والنهب.

ولكن حملة زيد هذه (غزوة مؤتة) كانت ذات أهمية كبيرة؛ لأنها كانت منظمة واستشهد فيها قادتها الثلاثة زيد وجعفر وابن رواحة[(٣)] .

---

(١) سبق التنويه عليه (ص٦).

(٢) «السيرة» لابن هشام (مؤتة).

(٣) «محمد الفاتح» د/ عبد السلام عبد العزيز فهمي ـ دار العلم دمشق.

والواقع أن القسطنطينية كانت هدفًا دائمًا للمسلمين منذ أيام معاوية بن أبي سفيان، ويعتبر معاوية أول من نظم اسطولاً في الإسلام، وأول من أرسل حملة عربية إسلامية للغزو في البحر المتوسط، وكان معاوية قد استأذن الخليفة عثمان ابن عفَّان في الغزو في البحر فأذن له واشترط عليه أن لا يجبر أحداً من جند المسلمين على ركوب البحر والغزو فيه . . وهكذا تشجع المسلمون على ركوب البحر والغزو فيه.

ومنذ ذلك اليوم الذي انتصر فيه جيش معاوية البحري على قبرص عام ٢٨هـ - ٦٤٨م، والبحرية الإسلامية تؤدي دوراً فعالاً، وكذلك انتصارهم على البحرية البيزنطية في معركة ذات الصواري، وكانت ذات الصواري موقعة هامة معروفة ظهر بعدها للمسلمين تفوقهم البحري، وتجرؤا على أعدائهم في البحر، وزال خوفهم من ركوبه؛ فهم قد انتصروا في تلك المعركة على صاحبة أقوى قوة بحرية معاصرة، وكان الأسطول الإسلامي يتكون من مائتي سفينة، وعليه بحارة من المصريين والسوريين، وتراوحت سفن الأسطول البيزنطي بين ٧٠٠ وألف سفينة بين كبيرة وصغيرة، وعن هذه المعركة تحدث المؤرخون[1]، فقالوا:

إن الروم قد خرجوا في جمع لم تجمع الروم مثله منذ كان الإسلام، والتقى الأسطولان عند موضع (فيونكس) على الساحل الجنوبي لأسيا الصغرى قرب نواحي سواحل تونس ويقود الأسطول البيزنطي الإمبراطور (قنسطاتر الثاني) (٦٤١-٦٦٨م)، وعلى الأسطول الإسلامي معاوية بن أبي سفيان يقود أهل الشام، وعبد الله بن سعد بن أبي السرح والي مصر، وإليه أمر البحرية الإسلامية، وقبل بدء المعركة بات المسلمون يقرأون القرآن، بينما أخذ الروم

(١) الطبري في «تاريخه» أحداث عام ٣١ هجرية.

يضربون النواقيس، وربط المسلمون سفنهم بعضها إلى بعض بسلاسل قوية، وذلك لمهارتهم في الحروب البرية، مما استحال على عدوهم أن يخترق صفوفهم، وانتهت المعركة بتبديد الأسطول البيزنطي، وهرب الإمبراطور (قنسطاتر الثاني) إلى صقلية، حيث عنفه أهلها لخيبته، ومما قالوه: «أهلكت النصرانية وأفنيت رجالها، لو أتانا العرب لم يكن عندنا من يمنعهم»، ثم أدخلوه الحمام وقتلوه.

وتعتبر معركة (ذات الصواري) البحرية والتي سُمِّيت بهذا الاسم (ذات الصواري) ـ لكثرة عدد السفن التي اشتبكت في القتال ـ حدًا فاصلاً في سياسة الروم إزاء المسلمين، فقد تيقن الأباطرة في القسطنطينية بعدها أن إعداد حملات برية أو بحرية لاسترداد مصر أو الشام مجهود فاشل ضائع، وأنه من الأجدى تنظيم الدولة وتخطيط سياستها على أساس الأمر الواقع للاحتفاظ بالبقية الباقية من ممتلكاتها، وتقوية أداتها الحربية لصد هجوم المسلمين الذين أخذوا يتطلعون إلى العاصمة القسطنطينية نفسها، وبذلك كان الأسطول البحري الإسلامي بمثابة ردع للأعداء[١].

والواقع أن القسطنطينية كانت هدفًا دائمًا للمسلمين منذ أيام معاوية بن أبي سفيان كما ذكرنا من قبل، لكن محاولاتهم المتكررة باءت بالفشل بفضل موقع المدينة وقوة الإمبراطورية، وبفعل الخطط الإستراتيجية المنفذة القائمة على أساس غير صحيح[٢].

---

(١) «محمد الفاتح» د/ عبد السلام عبد العزيز فهمي، ط. دار العلم ـ دمشق.

(٢) د/ طقوش «العثمانيون» (ص٨٧).

ولما حاصر بايزيد الأول المدينة عام ١٤٠٢م، كانت الإمبراطورية قد انحسرت في عاصمتها، وسيطر السلطان العثماني على بحر مرمرة، وتحكم في الدردنيل.

ويبدو أن الساعة الأخيرة للمدينة المحاصرة، لم تكن قد حانت بعد، بالرغم من أن السكان آنذاك كادوا يشرفون على الموت جوعًا ويلقون بأنفسهم من على الأسوار ويلجأون إلى العثمانيين للحصول على وجبة طعام[١].

وفجأة ظهرت قلاقل في مشرق الدولة العثمانية، وذلك عندما جاء تيمورلنك ليعطل نمو الدولة العثمانية، فاضطر بايزيد إلى فك الحصار من القسطنطينية ليواجه حشود تيمورلنك في سهول أنقرة.

واستعادت بيزنطية بفضل حكم مانويل الثاني معظم بلاد اليونان وأجزاء من تراقيا، لكن محمد الأول أعاد تنظيم الجيش العثماني وتحول به مراد الثاني من الهزيمة المنكرة إلى انتصارات باهرة[٢].

ويذكر المؤرخون أنه في عام ١٤٢٢م أعاد السلطان مراد الثاني الهجوم على القسطنطينية، لكن ثورة حدثت في الولايات البلقانية أرغمته على رفع الحصار، وسمح للإمبراطور يوحنا الثامن أن يحكم بسلام نسبي شرط أن يدفع جزية باهظة للعثمانيين[٣].

وفي عام ١٤٤٩م اعتلى العرش، عرش بيزنطة الإمبراطور قسطنطين، وكان آخر من جلس على عرش بيزنطة، وكانت علاقاته مع العثمانيين طيبة في عهد

---

(١) «قصة الحضارة» ول ديورانت (مجلد٦ ـ ص٢، ص٣٤).

(٢) المرجع السابق.

(٣) المصدر السابق (ص٣٥).

مراد الثاني، فقد عاهد مراد الثاني على الولاء، ثم حدث أن توفي مراد الثاني في عام ١٤٥١م وخلفه ابنه محمد الثاني، فاكفهر جو العلاقات العثمانية البيزنطية بفعل تبدل الظروف السياسية.

ثالثًا ـ استعدادات محمد الفاتح

كان السلطان محمد الفاتح يعلم أن ما هو مقدم عليه عمل خطير؛ لذلك بدأ في التخطيط والتجهيز لفتح القسطنطينية من خلال الخطوات الآتية:

١ ـ بذل جهودًا كبيرة في تقوية الجيش العثماني بالقوى البشرية، حتى وصل تعداده إلى قرابة ربع مليون مجاهد[١]، وهو عدد كبير.

٢ ـ اعتنى محمد الفاتح عناية كبيرة بتدريب تلك الجموع على فنون القتال المختلفة، وبمختلف أنواع الأسلحة التي تؤهلهم للعملية الجهادية المنتظرة.

٣ ـ حرص الفاتح على إعداد جيشه إعدادًا معنويًا قويًا، وغرس فيهم روح الجهاد، كما حرص على تذكريهم بثناء الرسول ﷺ على الجيش الذي يفتح القسطنطينية، وعسى أن يكونوا هم الجيش المقصود بذلك، مما أعطاهم دفعة معنوية هائلة.

٤ ـ أرسل العلماء لحث الجنود على الجهاد، فانتشروا بينهم، وكان لذلك أثر عظيم في تقوية عزائم الجنود وربطهم بالجهاد الحقيقي وفق أوامر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

وفي هذه الأثناء بدأت في الإمبراطورية البيزنطية مظاهر ضعف تبدو على السطح، إذ أنها لم ترسل فرقًا عسكرية إلى الجيوش الصليبية في ماريتزا

---

(١) «تاريخ الدولة العلية العثمانية»، محمد فريد بك (ص١٦١).

وكوسوفو ونيقوبوليس؛ لأنها فقدت الرغبة في الدفاع عن نفسها، وعجزت عن إقناع مواطنيها الأرثوذكس المنغمسين في السفسطة بأن الاستشهاد في سبيل الوطن عمل مجيد، وكثرت وتشعبت المشاكل الداخلية بفعل التعصبات المذهبية والقلاقل الدينية[١].

رأى السلطان محمد الثاني، أن هذا الوقت مناسبٌ للعبور إلى أسيا الصغرى، لإخماد بعض الثورات التي اندلعت فيها ضد حكمه بتحريض من الإمبراطور البيزنطي، خاصة ثورة القرمانيين بقيادة إبراهيم بك، فنزل ممتلكاته الأوربية تحت أمرة الوزير خليل باشا المعروف بصداقته للبيزنطيين[٢].

استغل قسطنطين إمبراطور بيزنطة زحف محمد الفاتح إلى أسيا الصغرى، وأبلغ الوزير خليل باشا أنه إذا لم يدفع من فوره مصاريف الأمير (اورخان) أمير القسطنطينية، وأن تكون مضاعفة، والإ فإنه سيطلق سراح هذا الأمير ويثيره عليه، ويمده بجيش من عنده، ويجلسه على عرش السلطنة مستغلاً بذلك الأحداث التي قام بها أمير القرمان ضد السلطان العثماني الجديد[٣].

ومن هذه اللحظة التي أنذر فيها الإمبراطور قسطنطين السلطان محمد الثاني، عزم محمد الفاتح على فتح القسطنطينية لتأمين دولته، وابتدأ باستعدادات ضخمة. ولاحظ محمد الثاني إهمالاً من عدوه قسطنطين في علاقاته وتحالفاته مع الغرب، ومواصلاته في الجنوب، فاستغل السلطان العثماني هذه الثغرة لعزل قسطنطين فوقع معاهدة مع البندقية في العاشر من شهر أيلول عام ١٤٥١م،

---

(١) «قصة الحضارة» ول ديورانت.

(٢) المصدر السابق (مجلد٦ ـ ص٢، ص٣٦).

(٣) «السلطان محمد الفاتح» د/ عبد السلام عبد العزيز فهمي.

وتفاهم مع يوحنا هونيادي في العشرين من تشرين الثاني، إذ تعهد السلطان بأن يمتنع عن مساعدة حاكم الأفلاق ضد المجر، وعن إنشاء الحصون عند نهر الدانوب مقابل سلم وآمان بين الطرفين.

وصادق في الوقت نفسه جنوة وراجون وفرسان القديس يوحنا في رودس، كما أرسل قوة عسكرية إلى المورة ليفتحها، ويمنع أميرها توماس وديمتريوس البيزنطيين من مساعدة قسطنطين، وبهذه التحالفات يكون قد عزل الإمبراطور البيزنطي سياسيًا عن العالم الغربي[١].

أما في أسيا الصغرى فقد أخضع القرمانيين[٢]، مما قضى على كل أمل في تحالف بيزنطي ـ قرماني. وبذلك كله مهد محمد الفاتح الجو السياسي للمعركة وخاض معركة سياسية رائعة ضد قسطنطين ملك بيزنطة.

وبالمقابل فقد كانت تحركات محمد الفاتح ضد قسطنطين إمبراطور بيزنطة بمثابة استفزاز له، فتعكر صفو العلاقات بين الجانبين، وخطا محمد الثاني خطوة مستفزة أخرى وهي إلغاء راتب (أورخان) الأمير لديهم وبدأ يعد العدة لحصار القسطنطينية بالرغم من تحذير الصدر الأعظم خليل الجندرلي، إلا أنه بدأ بخطوات عسكرية مهمة مثل بناء قلعة روملي حصار على الشاطئ الأوربي إلى جدار القسطنطينية، وشعر قسطنطين بالهلع والخوف مما يعده السلطان محمد الفاتح، وبدأ يستعد للمواجهة.

---

(١) «التحفة الحليمية ـ تاريخ الدولة العلية العثمانية» لإبراهيم بك حليم (ص٦٤).

(٢) «محمد الفاتح» سالم الهيثمي (ص ٨٠).

رابعًا ـ بناء قلعة روملي حصار

أقدم السلطان على خطوة تمهيدية للحرب ولفتح القسطنطينية، وهي بناء قلعة روملي حصار، على الشاطئ الأوربي إلى جوار القسطنطينية، وهي تبعد نحو ستة أميال إلى الشمال منها[١].

وبذلك يكون السلطان محمد الفاتح قد كسب موقعًا استراتيجيًا واقتصاديًا يحول دون وصول الإمدادات القادمة من مملكة طرابزون عن طريق البحر الأسود، وبالتالي عزل القسطنطينية اقتصاديًا كما أراد السلطان أن تكون القلعة قاعدة لأعماله الحربية في أوربا ومستودعًا للزاد والعتاد[٢].

تم بناء هذه القلعة في زمن قياسي، خاصة إذا علمنا أن إرتفاع القلعة عن سطح البحر يبلغ ٨٢ مترًا، وأنها تشتمل على ٣ أبراج إرتفاع كل منها ٧٠/ ٢٦م، وأن مساحة الأرض التي تشغلها ٣٠٢٥٠م٢، تربض أمام الضفة المقابلة أناضولي حصاري الذي شيَّدها جده بايزيد الأول[٣].

لم يكن ممكنًا لأية سفينة أن تمر من البحر الأسود إلى البحر الأبيض، أو بالعكس تحت النيران المتقاطعة للمدافع المثبتة على الطرفين (قلعة روملي حصار) الجديدة، وقلعة أناضولي حصار القديمة التي بناها جده بايزيد دون إذن من الأتراك، ولم يحدث ذلك حتى يومنا هذا، لذلك فإن مؤسس نظام المضايق هو السلطان محمد الفاتح. ومن المعلوم أن الموقع الذي شيد فيه القلعتين هو

---

(١) «أوزتونا» (جـ١ ـ ص١٣١).

(٢) «محمد الفاتح» د/ سالم الرشيدي (ص٨٢).

(٣) «أوزتونا» (جـ١ ـ ص١٣١).

أضيق نقطة في مضيق استانبول؛ حيث ينخفض العرض في هذه النقطة إلى ٦٦٠م فقط[١].

بهذا يعتبر السلطان محمد هو مؤسس نظام المضايق، وبعد أن أنهى إنشاء القلعة والتحكيمات اللازمة عاد إلى أدرنة في أول أيلول ١٤٥٢م.

وبينما إنشغل الإمبراطور قسطنطين الذي أدرك نية السلطان محمد الفاتح بدعوة أوربا إلى المساعدة، قضى السلطان[٢] محمد الفاتح شتاء عام (٥٢-١٤٥٣م) في أدرنة في استعدادات مدهشة، وأمر بسبك المدافع بأقطار لم يسبق أن شوهدت من قبل، ومدافع (الهاون) التي استعملت لأول مرة في التاريخ، وقد خطط لهذه المدافع بنفسه، كما اختبرها بنفسه، كانت نتيجة تجربة المدفع الكبير حسنة، فقد سمع انفجار البارود عند إشعاله بالنار من مسافة ١٠٠ ستار (٢/٥ ميل)، وسقطت القذيفة على مسافة ميل واحد، وحفرت عند سقوطها حفرة بعمق ١ قولاج (مسافة ما بين اليدين إذا فتحتا بشكل مستو)، وارتكزت في التراب اللين وبقيت فيه[٣].

وكان بناء السلطان محمد الفاتح لقلعة روملي حصار بمثابة النقطة الحرجة التي وصلت إليها العلاقات السلمية بين الطرفين؛ إذ رأى السلسطان في هذه القلعة مقدمة لإسقاط المدينة، وقد أدرك الإمبراطور ذلك، فأرسل سفيرين إلى السلطان في أدرنة للإحتجاج على هذا المشروع؛ لأن بناء القلعة بنظره يعني خرق السلطان للمعاهدة التي سبق وعقدها والده مع الإمبراطور البيزنطي،

---

(١) «أوزتونا» (جـ١ ـ ص١٣١).

(٢) المصدر السابق (ص١٣٢).

(٣) «تاريخ الدولة العثمانية» بيلماز أوزتونا (جـ١ ـ ص١٣٢).

ونصت علي عدم قيام العثمانيين ببناء تحصينات على الساحل الأوربي للبوسفور[١]، إلا أنه لم يكن يأمل في تلقي جواب مطمئن، وعندما عاد سفيراه بعد أسبوع تحققت ظنونه ومخاوفه، ذلك أن السلطان محمد الفاتح أبدى عدم اهتمام، ولم يكترث بما جاء به السفيران، وبين بصورة قاطعة أنه لم يخرق أية معاهدة، وأنه رجل سلام، وبالتالي فإن ما قام به تطلبته سلامة دولته وجيشة وأنه لم يستهدف الحرب[٢].

خامسًا - إعلان الحرب

كانت النتيجة المؤكدة والحتمية لبناء قلعة روملي حصار ومحاولات الرومانيين هدمها والاعتداء على عمالها، أن أعلن السلطان محمد الفاتح الحرب رسميًا على الدولة البيزنطية، وعيَّن فيروز أغا قائدًا للقلعة الجديدة، ومعه أربعمائة من خيرة جنود الإنكشارية، وأمره ألا يسمح لأي سفينة أجنبية بالمرور إلا بعد تفتيش دقيق ودفع الضريبة، وإن رفضت أطلق عليها القذائف.

أخذت حامية الحصن تنفذ خطتها بانتظام، وفرضت سيطرتها التامة على المنطقة المحيطة بها، وأدرك الإمبراطور قسطنطين أن محاولاته للحفاظ على السلام بأي ثمن لن تفيده شيئًا. فلا شيء يرضي العثمانيين غير القضاء على ملكه، وغير الاستيلاء على مدينته، فأغلق أبواب القسطنطينية وبعث إلى السلطان محمد الثاني بما عزم عليه في رسالة خطية جاء فيها:

«لما كان من الجلي أنك تريد الحرب أكثر من السلام؛ ولما كنت غير مستطيع أن أقنعك بإخلاصي واستعدادي لأن أكون لك تابعًا، لذا فالأمر لله وسأوجه

---

(١) «محمد الفاتح» سالم الرشيدي (ص٢٢).

(٢) د. قطوش «العثمانيون» (ص٩٠).

وجهي إلى الله، فإذا كانت إرادته تقضي بأن تصبح هذه المدينة مدينتك، فلا رادَّ لقضاء الله وقدره، وأما إذا ألهمك الرغبة في السلام فسأكون سعيدًا ما بقيت، ومع ذلك فإني أعفيك من كل تعهداتك واتفاقاتك معي، وسأغلق أبواب هذه المدينة وأدافع عن شعبي إلى آخر قطرة من دمي . . . .»[١].

أنجز السلطان محمد الفاتح بناء القلعة في ثلاثة أشهر، ثم أخذ بجمع المواد ويجهز الرجال، فأعدَّ جيشًا جرارًا يقدَّر بمائتين وخمسين ألف جندي، واستخدم كل جديد في فنون الحرب، خاصة المدفعية، وآلات الحصار الضخمة، واستأجر الصناع المسيحيين ليصنعوا له أكبر مدفع عرف حتى ذلك الوقت[٢].

اقتسم البيزنطيين هذه الأثناء إلى قسمين، كانت أوربا تطلب من البيزنطيين لكي تساعدهم على ترك مذهبهم الأرثوذكسي، واعتناق المذهب الكاثوليكي، أما الإمبراطور البيزنطي، فقد كان حاميًا للمذهب الأرثوذكسي، وحاميًا للبطريك العالمي الأرثوذكسي، ومن ثم فإنه من غير الممكن أن يتبع البابا من الناحية الدينية، وعلى الرغم من عمق الجذور ـ جذور العداوة التاريخية بين الكاثوليك والأرثوذكس ـ فقد جرت مراسم دينية على الأصول الكاثوليكية في أيا صوفيا أكبر كنيسة في العالم في ١٤٥٢م وتولى إدارة المراسم الكاردينال (لسيدور) الذي أرسله البابا، واشمئز الشعب البيزنطي معبرًا عن شعور البيزنطيين: أنني أُفضل أن أشاهد في ديار البيزنطيين عمامة الأتراك، على أن أشاهد القبعة اللاتينية.

قضى البيزنط شتاءً مريرًا تحت ظل أسوار قلعة حصار بوغاز كسن التي تمتد على طول ٢٠٠٠م. لكنه كان يعتمد على أسواره ـ التي لم يتمكن من فتحها

---

(١) «محمد الفاتح» د/ عبد السلام عبد العزيز فهمي ـ دار العلم دمشق.

(٢) «محمد الفاتح» سالم الرشيدي.

أشد الغزاة قساوة ـ وعلى تركيب نارهم، التي لا يعلم سرها سوى البيزنط والتي تزداد لهيبًا كلما صبَّ عليها الماء وعلى السيدة مريم.

كانت مناعة أسوار القسطنطينية تأتي في المرتبة الأولى في العالم؛ فقد كان ارتفاع الشرفات ١٧ متر، وما بين الشرفات ١٥ متر، ويبلغ السمك في الذروة ٤ متر، وفي القاعدة أكثر بكثير، وكان عرض الخندق الموجود أمام الأسوار ١٨ ١/٢ متر، وعمقه ٩ أمتار، وكان مليئًا بالماء، وكان للأسوار المكونة من طوابق عديدة ٣٠ برجًا مكسيًا بالرصاص. وكان المعروف أن القوات العثمانية ستتخطى كل هذا، وهو أمر مستحيل.

سادسًا ـ محاولات مواجهة محمد الفاتح

ولما بدأ السلطان محمد الفاتح استعداداته الحربية، وأوشك أن يطوق القسطنطينية بجيشة القوي ومدافعه الضخمة.

عندئذ صرخ قسطنطين صرخه استغاثة، وكانت استغاثة عبارة عن رسائل إلى الغرب، فاستنصر بالبندقية وجنوا فبذلت جهودًا في طرح هذا الأمر على ملوك الغرب واستنفارهم لنصرة القضية القسطنطينية، ولكن أوربا آنذاك كانت منهمكة في منازعاتها وحروبها الخاصة، فلم يسمع لقسطنطين صوتٌ في الغرب، فقد كانت البندقية مشغولة في حرب دوق ميلان، ولكنها رغم ذلك قامت بما يلي:

ـ أعدت عشر سفن بقيادة جاكوبو لوريدانو، وانتظرت حتى تأتيها السفن التي وعد بها البابا دالفونس ملك نابولي لكي يتكون من ذلك أسطول قوي يستطيع تقديم معونة ناجحة إلى القسطنطينية.

ومضى وقت ثم طويل، إلا أن البابا تحرك بعد ذلك وبعث بثلاثين سفينة ولكنها جميعًا لم تحقق الهدف المنشود.

وحاولوا توحيد الكنيستين لتوحيد مواجهة محمد الفاتح إلا أن هذا الأمر واجه صعوبات حتى إن أحد الرهبان المشهورين قلل من شأن هذا الاتحاد الذي بدأ على يد الكاردينال أيسبدور في كنيسة أياصوفيا، وقال: لا حاجة بنا إلى اللاتين، فكما أنقذنا الله والعذراء من الفرس والعرب من قبل سينقذنا هذه المرة من محمد الفاتح.

وأنذر هذا الراهب الروم بأنهم إذا تركوا عقيدتهم فإن الله سينزل بهم أشد العقاب ويفقدون مدينتهم، وهاج الرهبان وماجوا وقاموا بمظاهرة طافوا فيها المدينة، وخرجت إحدى الراهبات إلى الملأ في ملابس المسلمين وأعلنت أنها اعتنقت الإسلام وأخذ تأكل اللحم والناس في صومهم الكبير[1].

سابعًا ـ الاستعداد والتأهب للحصار

أما السلطان محمد الفاتح فقد انهمك كلية في الاستعداد والتأهب لحصار القسطنطينية المقبل، وقد أدرك أنه سيكون حصارًا طويلاً وشاقاً، وفيما كان يجد في استعداداته دخل عليه رجل مجري يُدعى (أوربان)، وهو صانع المدافع، بل يعد أمهر صانع للمدافع في زمانه، وكان أوربان هذا قد طاف ببعض بلدان أوربا وعرض صناعته على بعض ملوكها فلم يصغ إليه أحد، فذهب إلى القسطنطينية ولبث هناك زمنًا يقدم خدماته للإمبراطور ويعينه على إتخاذ أسباب الدفاع عن هذه المدينة، غير أن الإمبراطور ضنَّ عليه بالمال، وقد كان أوربان هذا رجلاً

(١) «محمد الفاتح» د/ سالم الرشيدي (ص٧٨) ـ طبعة دار البشير ـ طنطا ـ مصر.

جشعًا يحب المال حبًا جمًا، فبرم بهذه الحال كما برم بالمناقشات والمنازعات الدينية التي كانت تسود القسطنطينية؛ ففرَّ إلى السلطان محمد الفاتح الذي بالغ في الحفاوة به قائلاً: «هل يمكنك أن تصنع مدافع أكبر من التي صنعتها حتى الآن». فأجاب أوربان على الفور: «في استطاعتي أن أصنع لك مدفعًا يدك أسوار القسطنطينية، ولو كانت في مناعة أسوار بابل، غير أني مهندس ولست جنديًا، فلا أعرف أين توضع المدافع؟!!».

فقال السلطان محمد الفاتح ضاحكًا: «أنا الجندي، ما عليك إلا أن تصنع المدافع التي أريدها، أما أين توضع وكيف تصوَّب فدع ذلك لي»[(١)].

وكان المدفع اختراعًا حديثًا في هذا الوقت، استطاع أن يغير مجرى التاريخ، وكان مدفع الهاون هذا اختراعًا عثمانيًا عرفه العالم لأول مرة أثناء حصار القسطنطينية، كما كان المدفع الضخم أكبر عامل في فتح مدينة القسطنطينية.

ويذكر المؤرخون[(٢)]، أن هذا المدفع الضخم لم يكن من اختراع أوربان وحده، بل هو من اختراع اثنين هما: مصلح الدين وأوربان، وأوربان هذا مختلف في أصله هل هو مجري أو روماني، كان المدفع ضخمًا جدًا، طلقاته من مسافة (٢٥ميلاً) وقذيفته من الحجر والبارود تبلغ زنة القذيفة الواحدة (١٥٠٠كجم)، تصل مداها إلى مسافة ميل، وقد بلغ عدد المدافع التي صنعها كل من مصلح الدين وأوربان ٢٠٠ مدفع.

وعندما كان المدفع ينقل من أدرنة العاصمة إلى القسطنطينية ليستقر أمام أسوارها كان لزامًا على العثمانيين توسعه طريق أدرنة - القسطنطينية، وقام بهذه

---

(١) المصدر السابق.

(٢) د/ محمد حرب ـ «العثمانيون في التاريخ والحضارة» (ص٧٨).

العملية (٥٠) مهندسًا ومائتا عامل، وكان يجر المدفع ٦٠ جاموسة ويسند المدفع من جانبين ٤٠٠ رجل قوي: (٢٠٠) على كل جانب، وذلك حتى لا ينزلق المدفع يمنة أو يسرة أثناء المرور، ولقد لعبت هذه المدافع دورًا ملحوظًا في الحصار سواء في الضرب أو في عمليات التمويه، وإن لم تكن كافية للتحكم تمامًا في الخليج كله[١].

وقد قطع هذا المدفع الضخم الطريق من أدرنة إلى موضعه أمام أسوار القسطنطينية في شهرين وهو طريق يقطع عادة في يومين، وكان لإنطلاق القذيفة من هذا المدفع دوي هائل مرعب يصم الآذان، ويسمع على بعد ثلاث عشر ميلاً، وعندما أريد تجربته أول مرة في أدرنة أنذر سكان المدينة لئلا يفجأهم هذا الدوي المرعب، فتضع الحبالى من النساء، ويصعق الناس، وإنطلقت القذيفة الضخمة إلى مسافة ميل وغاصت في الأرض ستة أقدام.

وقد أعجب الناس بهذا المدفع إعجابًا شديدًا، ومن شدة إعجابهم نسبوه في تسميته إلى السلطان ودعوه بـ (المدفع السلطاني)، وقد كان بحق سلطان المدافع في عصره، وصنع أوربان إلى جانب هذا المدفع مدافع أُخرى، وسُرَّ السلطان الفاتح بنجاح التجربة وأجزل العطاء والمكافأة للعمال وبخاصة الذين صنعوا هذا المدفع، وازداد الأتراك حماسًا لفتح القسطنطينية.

(١) «العثمانيون والحضارة» د/ محمد حرب.

ثامنًا - مشاورات حول فتح القسطنطينية

لهذا كله سيطرت فكرة فتح القسطنطينية على ذهن السلطان محمد الفاتح واستحوذت على جميع جوانب نفسه فأصبح لا يتحدث إلا في هذا الأمر ولا يأذن لأحد ممن يجالسه بالحديث في غيره.

وذُكِرَ أنَّه كان يخرج مع بعض خاصته في بعض الليالي يعس ويجول طرقات المدينة يتسمع إلى أخبار الجنود وأحاديث الناس، وأصبح أمر القسطنطينية همًا للسلطان يشغله ليله كما كان يشغله نهاره، لذلك فقد بدأ يخطط لنجاح هذا الفتح، واستهلَّ ذلك بالمشاورات مع وزرائه والمقربين حوله.

وفي ليلة من الليالي دعا وزيره (خليل باشا)، وأُوجس الوزير خيفة، وظنَّ أنَّ شرًا قد أُريد به، فقد كان ممَّن عَمل على عزل السلطان الفاتح عن العرش في المرتين السابقتين، فحمل معه صُرَّةً مملوءة ذهبًا ووضعها بين قدمي السلطان الفاتح الذي كان جالسًا على سريره وعلى وجهه أثار الإعياء والتعب، فلما رآهُ السلطان بادره بقوله: ما هذا؟

فأجاب خليل باشا: «لا ينبغي لوزير أن يُدعى في مثل هذه الساعة ويده خالية، إن ما أقدمه إليك ليس ملكي، بل هو من فضلك».

فقال الفاتح: «لست في حاجة إلى هذا، وإنما الذي أُريده منك هو أن تعينني بكل قوتك على امتلاك القسطنطينية».

وارتعد خليل باشا من هذا القول، فقد كان يمالئ الروم خفية واستمالوه إليهم بالذهب والهدايا، واشتهر أمر ذلك بين الناس، فلما ذهب عنه الخوف، قال للفاتح: «إن الله الذي منحك جزءًا كبيرًا من الإمبراطورية الرومية سيمنحك ما تبقَّى منها، ويفتح لك أبواب عاصمتها؛ وأن جميع رعيتك سيتسابقون في التضحية بأموالهم وأنفسهم في هذا السبيل».

فقال له الفاتح: «أرأيت هذا الفراش؟ لقد تقلبت عليه طوال الليل، ولم يطمئن بي مضجع ولا أتاني النوم، ولكن حذار أن تفسدك أموال الروم، إنَّ القتال سيبدأ عن قريب وإننا بعون الله سنستولي منهم على هذه المدينة»[1].

وما إن خرج خليل باشا من قصر السلطان الفاتح الذي أصبح مركزًا للقيادة والتخطيط للمعركة، ما إن خرج نهض السلطان محمد الفاتح عن فراشه وأخذ يرسم مدينة القسطنطينية، وأسوارها وأين توضع المدافع وآلات الحصار وأين يكون الهجوم، ثم أخذ يتحرى المعلومات الدقيقة عن المدينة واستحكاماتها ومواردها، ولا تمر عليه صغيرة ولا كبيرة دون أن يتفحصها ويدقق فيها ويُعِدُّ لها عُدَّتها.

من هذه الروايات ومن سياقها نتبين أن محمد الفاتح اهتمَّ بالتخطيط الدقيق والإعداد المسبق لعمليته التاريخية الكبرى، ولذلك استطاع أن يكون رؤية صادقة للموقف المطروح أمامه، مما يسمونه الآن في قاموس السياسة (تقدير موقف).

لقد رأى السلطان محمد الفاتح أن الطريق إلى القسطنطينية من ناحية الدردنيل مازال مفتوحًا تدخل منها السفن وتخرج في حريَّةٍ تامةٍ، وبذلك قدر الموقف واتخذ القرارات المناسبة في مواجهة ذلك؛ فأمر بالإسراع في بناء سفن جديدة وإصلاح القديمة ووضعها في بحر مرمرة لمنع أي سفينة نصرانية من تموين القسطنطينية، وهذا جزء من الحصار، وبلغ عدد هذه السفن التركية على اختلاف أنواعها وأحجامها مئة سفينة عل تقدير المؤرخ الرومي (فرانتزلس) وهناك تقديرات أخرى تتراوح بين ٣٥٠، ٣٠٠، ٢٥٠ سفينة، على أنه لم يكن من هذه السفن غير اثنتي عشرة فقط كانت مسلَّحة تسليحًا تامًا، وخشي

(١) «محمد الفاتح» د/ سالم الرشيدي (ص٨١) ـ ط. مصر.

الروم أن تدخل هذه السفن إلى ميناء القرن الذهبي فسدوا مدخله في ١٢ إبريل ١٤٢٣م بسلسلة ضخمة، واحتمت السُّفن النصرانية وراءها، وعهد بحراسة الميناء إلى الجنويين.

تاسعًا - الزحف وبدء الحصار

وفي أواخر شهر مارس، كان السلطان محمد الفاتح قد أتم استعداداته ثم زحف بجيشه إلى القسطنطينية، وما إن وصل إلى مشارف المدينة حتى خطبهم خطبة بليغة، حثهم فيها على الجهاد، وقرأ عليهم الآيات القرآنية وحديث رسول الله ﷺ: **«لتفتحنَّ القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش»**.

وبين لهم أنه فخر كبير وإعزاز للإسلام أن تفتح القسطنطينية، وكان في طليعة هذا الجيش الشيوخ والعلماء والدراوشه يتقدمهم الشيخ آق شمس الدين، وفي ربيع الأول ٨٥٧هـ/ ٥ إبريل ١٤٥٣م وصل الجيش الإسلامي أمام أسوار القسطنطينية، بجموعه الهادرة وتكبيراته المدوية، وشرع السلطان الفاتح في التأهب لحصار القسطنطينية.

وفي اليوم التالي الجمعة ٢٧ ربيع الأول ٨٥٧هـ، ٦ إبريل ١٤٥٣م، بدأ الحصار، ولكن أي مدينة وأي تحصينات شرع محمد الفاتح في حصارها. إن وصف موقع هذه المدينة لحظة حصارها يبين مدى المسئولية التي تحملها القائد البطل محمد الفاتح عندما شرع في حصارها وفتحها.

---

(١) سبق التنويه إليه (ص٦).

عاشرًا ـ القسطنطينية عند بدء حصارها

وقد حرصنا على الحديث عن وصف القسطنطينية لحظة حصارها، فهي عاصمة الإمبراطور الرومانية الشرقية العتيقة، وهي مدينة مثلثة الشكل، جانب منها يقع على بحر مرمرة وجانب على ميناء القرن الذهبي، ويمتد على طول كل منهما سورٌ واحدٌ، أمَّا الجانب الثالث الذي يقع في الجهة الغربية ويصل القسطنطينية بأوربا، فكان هناك خطان من السور طولهما أربعة أميال يمتدان من شاطئ بحر مرمرة إلى شاطئ القرن الذهبي، ويبلغ ارتفاع السور الداخلي منهما نحو أربعين قدمًا، وقد دُعِّمَ بأبراج طولها ستون قدمًا، وتبلغ المسافة بين كل برج وآخر نحو مائة وثمانين قدمًا، ويبلغ ارتفاع السور الخارجي نحو خمس وعشرين قدمًا، وقد حُصِّنَ أيضًا بأبراج شبيهة بأبراج السور الأول، وإن كانت أصغر حجمًا قليلاً، وهذا السور الخارجي وحده كان من القوة والمناعة بحيث يكفي لحماية أي مدينة من مدن العصور الوسطى، وبين هذين السورين فضاء يبلغ متوسط عرضه نحو ستين أو خمسين قدمًا، ويقع أمام السور الخارجي سور ثالث ليس بذي خطر، سهل اقتحامه، يصح أن تسميه متراسًا، وبين هذا السور والمتراس يوجد فضاء آخر، ثم نجد أمام هذا المتراس خندقًا واسعًا يبلغ عرضه نحو ستين قدمًا، ويعتبر هذا الخندق خط الدفاع الأول عن القسطنطينية[1].

وللسور الخارجي لهذه المدينة أبواب كثيرة، أهمها:

١ ـ باب أدرنة.

٢ ـ باب المدفع، ويُسمى بالتركية (طوب قبو) وكان القدماء يسمونه باب القديس رومانُسْ.

٣ ـ الباب العسكري الثالث.

---

(١) المصدر السابق.

ألا يحق لنا أن نوجه تحية عبر هذا التاريخ العظيم لمحمد الفاتح ورجاله الأشداء الذين سنراهم ونتخيلهم ونحن نقرأ كيفية فتح القسطنطينية والذين اختارهم جهدًا وأشقاهم تعبًا ومشقة . . تحية للرجل والرجال قبل أن نقرأ هذا الفتح العظيم.

أقام محمد الفاتح جنوده تجاه السور وجعلهم ثلاثة أقسام:

١ ـ القسم الأول ـ الميمنة: ويتألف من جنود الأناضول بقيادة إسحق باشا ومحمود بك، ويواجه جزءًا من السور يمتد من أقصاه الجنوبي عند بحر مرمرة إلى طوب المدفع كما ذكرنا في أبواب القسطنطينية.

٢ ـ القسم الثاني ـ الميسرة: ويتألف من جنود أوربا والمتطوعين وغير النظاميين بقيادة (قره جه باشا) ويواجه جزءًا من السور يمتد من أقصاه الشمالي عند ميناء القران الذهبي إلى باب أدرنة.

٣ ـ القسم الثالث ـ القلب: ويتألف من الإنكشارية والجنود المختارة بقيادة السلطان الفاتح نفسه ويواجه من السور الجزء الأوسط الذي يمتد من باب المدفع (طوب قبو) إلى أدرنة، و هذا الجزء من السور يعرف أيضًا باسم (ميزوتشيون) كما يعتبر أضعف جزء فيه؛ إذ يقع في وادي نهر ليكوس، وأمام محمد الفاتح هذا القلب مركز قيادته للإشراف علي حركات الجند وسير الحصار والقتال، وأقام عند كل باب مراقبًا خاصًا، وقدم جميع المراقبين بسالة عظيمة في أداء عملهم وأبلوا أحسن البلاء، وفي مقدمتهم شاعر أحمد باشا، وحيدر باشا، وسعدي باشا، وهرشك باشا، وقد استشهدوا جميعًا ودفنوا عند الأبواب التي كانوا يراقبونها، وعسكر زغنوس باشا أحد قواد الفاتح مع فرقة من الجند في المرتفعات المشرفة على غلطة لمراقبة الجنويين بها، ومنعهم من إمداد القسطنطينية

ومراقبة الشاطئ الشمالي من القرن الذهبي، وأمره الفاتح أن يقيم جسرًا عند نهاية الميناء؛ لتسهيل الإتصال ونقل الجنود من إحدى الضفتين إلى الأخرى، وليتمكن من الإشتراك في الهجوم على المدينة من ناحية البرِّ عند الحاجة.

ونصب السلطان محمد الفاتح أمام السور البري المدافع والمجانيق وأحكم وضعها وتنسيقها، وكانت هناك أربع عشرة بطارية في كل واحد منها أربعة مدافع نصب الكبيرة الضخمة منها أمام باب (المدفع).

وانتشرت السفن العثمانية في بحر مرمرة لمنع ما قد يأتي من سفن العدو من الغرب لإنجاد القسطنطينية ومراقبة السور الواقع على بحر مرمرة.

أما قسطنطين ملك الروم، فقد خشي أن تقتحم هذه السفن ميناء القرن الذهبي وتحاصر المدينة من هذه الناحية، فقد كان السور القائم هناك أضعف الأسوار كلها، ومن هذا الجانب دخل الصليبيون القسطنطينية ١٢٠٤م، فشدد الحراسة على هذا الميناء، وأمر السلطان الفاتح قائد السفن العثمانية (بالطة أوغلو) بتطهير بحر مرمرة والاستيلاء على جزر الأمراء، وهي جزر تقع في وسط بحر مرمرة، وكانت منفى الأمراء الروم وأباطرتهم، وقد استولى عليها بالطة أوغلو وانتشل المعتقلين والمسجونين من السجون ورد إليهم حريتهم وأطلق سراحهم، ثم وضع في هذه الجزر حاميات عثمانية.

أما الإمبراطور قسطنطين، فقد أعدَّ كل ما استطاع إعداده من جند وعتاد لمقاومة هذا الحصار، ووزع جنوده على أسوار القسطنطينية واتخذ هو مكانه تجاه قلب الجيش العثماني ما بين باب أدرنه وطوب قبو، ومعه القائد الجنوي جستنيان الذي عهد إليه قسطنطين بالقيادة العامة في الدفاع.

الحادي عشر ـ تقدير أعداد الجيوش المتحاربة

اختلف المؤرخون في تقدير عدد الجيش العثماني، أما المؤرخون البيزنطيون[١]. القدامى، فقد بالغوا في تقديره، ويرفعونه إلى ثلاثة مئة ألف وأربع مئة ألف مقاتل.

والواضح أن هؤلاء المؤرخين يرمون إلى تكثير الجيش العثماني عددًا لكي يقللون من شأن الهزيمة التي نزلت بالروم وتهوين شأن النصر الذي أحرزه العثمانيون.

ويقدر بعض المؤرخين الغربيين الجيش العثماني بمئة وخمسين ألفًا أو مئة وستين ألفًا[٢]، وإلى هذا التقدير المعتدل ذهب بعض المؤرخين الأتراك.

أما المدافعون عن القسطنطينية فقد قُدروا بثمانية آلاف مقاتل نصفهم من الروم والنصف الآخر من اللاتين . . إلا أن هذا الرقم قصد به أيضًا التقليل من شأن الفتح العظيم، فساق العدد القريب إلى الواقع بعض المؤرخين، فقالوا: إن عدد المدافعين لا يقل عن ستين ألفًا[٣]، وقيل أنهم بلغوا أربعين ألفًا وإلى جانبهم يقف ذلك السور العملاق الضخم.

---

(١) ومنهم ـ فرانتزلس ودوكاس وخالكونديل.

(٢) «فتح جليل قسطنطينية» أحمد مختار باشا.

(٣) ضياء شاكر ـ «فتح استانبول».

الثاني عشر ـ بدء الهجوم

بدأت مدافع العثمانيين تدك بقذائفها الهائلة سور القسطنطينية الضخم، وظلت على ذلك ليلاً ونهارًا لا تكاد تنقطع إلى آخر أيام الحصار، وكان لاصطدام القذيفة بالسور دوي هائل يملأ القلوب ـ قلوب أهل القسطنطينية ـ رعبًا وهلعًا، وبخاصة في ساعات الليل الهادئ والسكون المظلم، ويملأ الفضاء بسحب الدخان والتراب. ووجم الناس في القسطنطينية وانتابهم نوع من الذهول، وما ظنوا قط أن للمدافع كل هذا الأثر، وأخذ القسس يجوبون الشوارع يخطبون الناس بأن لا يقطعوا الأمل.

ـ وقد استبسل الفريقان المهاجمون والمدافعون في القتال والنزاع، واصطرعوا صراع الحياة والموت.

* أما المدافعون، وعلى رأسهم جستنيان والإمبراطور، فقد كانوا لا يكاد يتلف جانب من السور حتى يسرعوا إلى إصلاحه وترميمه، بينما المحاصرون لا ينقطعون عن رمي قذائفهم على السور ويندفعون بين حين وحين لاقتحامه، وقد أبدى جنود الإنكشارية بوجه خاص بسالة نادرة وشجاعة فائقة لا يبالون بالموت والخطر، وقد أشاد ببطولتهم المؤرخ الإيطالي باربارد والذي شاهد أعمالهم بنفسه، فقد كان في القسطنطينية من المحصورين.

وقد استطاعت المدافع العثمانية الضخمة أن تهد جزءًا من السور الخارجي عند وادي ليكوس، وقد امتلأ الخندق بأنقاض السور وشظايا القذائف، فاندفع الجنود العثمانيون نحو الثغرة، وكان ذلك في أصيل اليوم الثامن عشر من إبريل، وتسلقوا السور بالسلالم، وقذف جستنيان بجميع جنوده المدرعين إلى هذا الموضع، واشتد القتال بين الجانبين، وارتفعت الصيحات من هنا وهناك، وانتشر

خبر هجوم الأتراك في المدينة فسادها الذعر ودقت أجراس الكنائس على أن الثغرة كانت من الضيق بحيث لم يكن الأترك يملكون فيها حرية الحركة والقتال، وإنهمرت عليهم السهام والنبال من كل جانب، واستمر هذا القتال العنيف إلى أن أظلم الليل، فأمر الفاتح جنوده بالانسحاب بعد أن عجم قوة المدافعين.

وفي نفس ذلك اليوم حاولت بعض السفن التركية تحطيم القائمة على مدخل ميناء القرن الذهبي واقتحامه، ولكن السفن الرومية والإيطالية الحارسة الواقعة وراءها كانت أكثر ارتفاعًا، فسهل عليها أن تصب قذائفها ونيرانها علي السفن العثمانية الصغيرة القصيرة، وتردها عن محاولتها.

واغتبط أهل القسطنطينية وظنوا أن النصر قد حالفهم وفرحوا بنجاحهم في صدِّ الأتراك في البر والبحر، وقوي أملهم في صدهم في المستقبل، وذهب قسطنطين مع البطريك إلى كنيسة أياصوفيا وصلَّى صلاة الشكر لأنه انتصر.

أما السلطان الفاتح فلم تهن عزيمته لهذا الفشل، بل ضاعف جهده ونشاطه ولم تكن هذه الهزيمة لتوهن عزيمته وتثبط همته، بل بعثت في نفسه القوة والحمية.

الثالث عشر - السفن القادمة والهزيمة الثانية

في صبيحة يوم ٢٠ من إبريل ١٤٥٣م ظهرت في بحر مرمرة خمس سفن نصرانية قادمة من الغرب تحمل الطعام والمعدات والرجال، أربع منها بعث بها البابا وجنوا لمساعدة القسطنطينية والخامسة للإمبراطور[1]. وقد كان أهل القسطنطينية يتوقعون وصول مثل هذا المدد ويترقبونه، وكان الأتراك من جانبهم على مثل هذا التوقع، وما أن علم السلطان الفاتح بأمر هذه السفن حتى ترك

(١) «تاريخ الدولة العثمانية» يلماز أوزتونا (جـ١ ـ ص١٣٤).

موضعه في مركز القياده وأسرع على حصانه إلى شاطئ غلطة، وأمر قائده بالطة أوغلو بملاقاة هذه السفن، وقال له: «إما أن تستولي على هذه السفن وإما أن تغرقها، وإذا لم توفق في ذلك فلا ترجع إلينا حيًا»[1].

وكان اليوم صحوًا والسماء صافية والريح تدفع السفن الخمس دفعًا نحو القسطنطينية، وتحفز بالطة أوغلو في طائفة من سفنه لملاقاتها وقتالها، ووقف الإمبراطور وأهل القسطنطينية على شرفة السور المطل على بحر مرمرة وأخذوا يلوحون بأيديهم للسفن النصرانية يشجعونها ويبتهلون إلى السماء أن تنصرها، ووقف السلطان محمد الفاتح مع بعض رجاله على ساحل غلطة ينتظرون المعركة، وقد امتلئوا ثقة بأن النصر سيكون حليفًا للسفن العثمانية، ولكن هذه السفن على كثرتها في العدد لم تقو علي مجالدة السفن النصرانية الخمس، وما لبثت أن تمزقت وتشتت، وذلك أن هذه السفن التركية قد بنيت قبيل البدء في حصار القسطنطينية في سرعة وعجل، فجاءت غير محكمة البناء، ولا متقنة الصنع، ولم يكن هناك من هذه السفن العديدة غير ثماني عشرة كانت على شيء من القوة، أما سائر السفن فكانت لا تعدو أن تكون قوارب صغيرة مكشوفة مملوءة بالجند، ولم يكن لها شيء من المدافع، وذلك لأن الأتراك في ذلك الحين كانوا حديثي العهد بالبحر وأساليب القتال في مياهه، فلم يكن لهم من العدة في القتال غير الشجاعة، وكان الطليان في ذلك العهد سادة البحر وفرسانه، بلا منازع وأمهر الناس في ركوبه وأساليب القتال فيه، وكانت السفن النصرانية الخمس فوق ذلك محكمة البناء، عالية الطول، كاملة العدة والعتاد، قد لَبِسَ رجالها الدروع والزرود، فأخذوا يطلقون قذائفهم ونيرانهم الفتاكة على

(١) د/ سالم الرشيدي ـ «محمد الفاتح».

القوارب العثمانية الصغيرة وهي تحاول بمجاديفها الخشبية مغالبة الريح الشديدة التي كانت تعوقها عن التقدم.

وسكنت الريح فجأة فوقفت السفن الخمس عن السير، وإنكمشت أشرعتها، وكانت قد قاربت مدخل القرن الذهبي، وتصاعدت صيحات الفرح من جانب الأتراك، وانتهز (بالطة أوغلو) هذه الفرصة، فانقض بسفنه على السفن الخمس واستبسل الأتراك في الهجوم قبل أن تهب عليهم الريح من جديد، وحاولوا خرق السفن النصرانية لإغراقها، فلم يوفقوا، وحاولوا إحراقها بالنار، ولكن سرعان ما يصب عليها الماء فيطفئها، وعاود (بالطة أوغلو) الهجوم مرة بعد أُخرى حتى اصيبت إحدى عينيه واحتدم القتال وأخذت الأتراك يقفزون إلى السفن النصرانية والجنود النصارى يطلقون قذائفهم ونيرانهم الإغريقية عليهم دون أن تحمي أجسامهم دروع فيتساقطون إلى البحر، ولم يبال العثمانيون جميع هذه المصاعب والشدائد، ولم يكن تسمع بينهم إلا كلمة واحدة الهجوم الهجوم!! فيندفعون إلى الأمام في حمية وجنون لتصرعهم القذائف الحجرية والنارية.

وكان السلطان الفاتح على شاطئ غلطة ينظر إلى هذا الصراع الدامي بعين لا تطرف، وهو لا يكاد يستقر في مجلسه فوق ظهر جواده، فلما رأى ما نزل بسفنه ورجاله من القتل والتمزيق لم يتمالك نفسه فاندفع نحو البحر حتى غاص حصانه إلى صدره، وكانت السفن المتقاتلة على مرمى حجر منه فأخذ يصيح لبالطة أوغلو بأعلى صوته: يا قبطان! يا قبطان!، ويلوح إليه بيده، وضاعف الأتراك جهودهم في الهجوم دون أن ينالوا منالاً من السفن الرومية، على أن رجالها قد بدأوا يشعرون بالجهد والإعياء، ولو أن الصراع امتدَّ وقتًا آخر لانتهى بهم حتمًا إلى الاستخزال والتسليم، وكانت الشمس تدنو من المغيب، وفجأة هبت الريح من الجنوب قوية رفرافة، فنشرت الأشرعة ومرقت السفن والخمس

من بين السفن التركية، وانفلتت إلى القرن الذهبي حيث أنزلت السلسلة الضخمة ثم شدَّها الروم مرة أُخرى ووصلت السفن إلى ملاذٍ أمين، ثم خيَّم عليها الليل وطواها بظلامه[١].

ولوى السلطان الفاتح عنان فرسه وخرج من الماء وقد ابتلت أطراف ثيابه وعلاها زبد البحر الممزدج بالدم إلى معسكره وهو مطرق في صمت مغيظ، واستدعى إليه قائده بالطة أوغلو وعنَّفه واتهمه بالجبن، وتأثر القائد (أوغلو) بهذا الاتهام، وقال: «إنني أستقبل الموت بجنان ثابت، ولكن يؤلمني أن أموت وأنا متهم بمثل هذه التهمة، لقد قاتلت أنا ورجالي بكل ما كان في وسعنا من حيلة وقوة»، ورفع طرف عمامته عن عينه، فإذا هي مصابة إصابة بالغة.

وأدرك محمد عند ذلك أن قائده لم يقصِّر في أداء واجبه فتركه ينصرف واكتفى بعزله من منصبه، وجعل مكانه حمزة باشا[٢].

وقد ذكر المؤرخون الغربيون أن السلطان محمد الفاتح جَلَدَهُ بالسوط، إلا أن المؤرخين العثمانيين نفوا ذلك، ونفوا أنه من أصل بلغاري[٣].

وقد ذكر بيلماز أوزتونا أنه: «بلغ من شدة غضب محمد الفاتح لهذا الحادث أن قام بعزل (بالطة أوغلو سليمان بك) ـ قائد القوة البحرية ـ الذي لم يتمكن من وقف هذه السفن، وعين بدلاً منه المشير البحري (قبودان دريا) أحمد بك بن جالي بك أحد قواد البحر السابقين[٤].

---

(١) بيلماز أوزتونا (جـ١ ـ ص١٣٤) «تاريخ الدولة العثمانية».
(٢) «تاريخ الدولة العثمانية» ـ بليماز أوزتونا (جـ١ ـ ص١٣٤).
(٣) أوزتونا (جـ١ ـ ص١٣٤).
(٤) ضياء شاكر ـ «تاريخ استانبول».

أمَّا أهل القسطنطينية فقد غمرتهم الفرحة بهذا النصر المبين، وزاد أملهم وثقتهم في المستقبل اعتقادهم أن هذه السفن الخمس التي جاءتهم بالزاد والعتاد والرجال الأشداء ما هي إلا طليعة لأسطول أكبر عددًا وأشد قوة، ولاح لهم في الأُفق أنهم سيهزمون الأتراك ويردونهم عن أسوار القسطنطينية، وأقيمت مواكب الأفراح والمهرجانات في المدينة ودقت أجراس الكنائس، وظل الناس طوال الليل ينشدون الأناشيد المقدسة ويتردد صداها في معسكر الأتراك، ولكن هذا المدد من الغرب كان المدد الوحيد الذي وصل إلى القسطنيطينية، وكان أشبه بومضة لمعت في ظلمة الليل ثم انطفأت.

الرابع عشر - الأسطول العثماني يسير في البر

كانت خطة هائلة ولربما كانت سببًا في فتح القسطنطينية وتحقيق النصر النهائي.

وقد استمرت المدافع العثمانية في قصف أسوار القسطنطينية ليلاً تدكها دكًا، وتهدها هدًا، واعتقد خليل باشا الذي كان ميَّالاً للروم سرًا أن الفرصة مواتية بعد هزيمة الأسطول العثماني ودخول السفن الرومية في القرن الذهبي لصرف السلطان الفاتح عن المضي في حصار القسطنطينية، فأشار عليه أن ينظر فيما عرضه عليه قسطنطين ويعقد معه الصلح قبل أن تأتي من الغرب قوات أُخرى لا قبل له بها، ولكن السلطان الفاتح إزدراه وأعرض عنه، وأصرَّ على عزمه على فتح القسطنطينية، وأيده في ذلك وزيره زغنوس باشا، والمولى الكوراني، والشيخ آق شمس الدين الذي كان يلهب حماس الجند بخطبه ومواعظه[1].

(١) «تاج التواريخ» سعد الدين.

وفكر السلطان محمد الفاتح في وسيلة لإدخال سفنه في القرن الذهبي للسيطرة على هذا الميناء وحصار القسطنطينية من أضعف جوانبها، وإضعاف الدفاع عن السور البري، وتشديد الإشراف على جنوبي غلطة الذين يعملون بوجهين، ثم تسهيل المواصلات مع قاعدته في (روملي حصار)، وقد حاولت السفن العثمانية تحطيم السلسلة الضخمة القائمة عند المدخل عدَّة مرات فلم توفق، وكان أحد طرفي السلسلة يقع في شاطئ غلطة مدينة الجنويين، وكانت العلاقات بينهم وبين الفاتح علاقة سلام، وإن كانوا يميلون بعواطفهم إلى الروم، ويتمنون لهم النصر، ولو أن السلطان الفاتح اقتحم غلطة واحتلها لتيسر له تحطيم السلسلة ويدخل في الميناء ما شاء من السفن، ولكنه بذلك يخلق لنفسه أعداء جددًا، وهو أحوج ما يكون إلى تجميع قواته ضد القسطنطينية، إذ كانت غلطة في ذلك الحين تحت حماية دوق ميلان، ولاحت للفاتح فكرة بارعة.

هذه الفكرة موجزها نقل السفن من مرساها في (بشكطاش) إلى القرن الذهبي، وذلك بجرها على الطريق البري الواقع بين الميناءين، والمسافة بين الميناءين ثلاثة أميال، وهي ليست أرضًا مبسوطة سهلة، ولكنها وهاد وتلال تعلو وتنخفض، تتلوى وتتعرج . . وبعد أن عُدَّت الأرض وسويت، أُتي بألواح من الخشب ودهنت الشحم، وصُفَّت على الطريق، ثم اختار الفاتح السفن الخفيفة وأمر بتزليقها على هذه الألواح المدهونة، ونشرت أشرعتها وجرَّها العمال فسارت كأنها على اليم، وألقى في القرن الذهبي نحو سبعين سفينة، وقم تم هذا العمل كله في ليلة واحدة (٢١-٢٢ إبريل)، وقد صرف الفاتح أنظار الروم في القسطنطينية والجنويين في غلطة وهم أقرب الناس إلى الشعور بهذا العمل الضخم[١].

---

(١) «تاريخ الدولة العثمانية» بليماز أوزتونا (جـ١ ـ ص١٣٥).

ويقول المؤرخون[١]، عن هذا العمل الضخم من حيث التفكير والتكتيك العسكري: «تمت في ليلة ٢٢ إبريل عملية مذهلة، تمثلت في تسيير ٦٧ قطعة صغيرة من الأسطول التركي على البر (لتفادي السلسلة الغليظة التي تغلق خليج استانبول ـ القسطنطينية ـ) ومن مظاهر الإعجاز في هذه العملية أنها تمت في ليلة واحدة، ودون أن يشعر بها العدو».

وقد أحدثت هذه العملية إنهياراً في معنويات البيزنط (الروم)، فقد أصبحوا يوم ٢٣ إبريل على منظر الخليج، وهو يموج بقطع الأسطول التركي، وقد كتب المؤرخ الفرنسي دوكاس والذي التقى بمحمد الفاتح شخصيًا، كتب يقول عن هذا الإنجاز: «ما رأينا ولا سمعنا من قبل بمثل هذا الشيء الخارق، محمد الفاتح يحول الأرض إلى بحار، وتعبر سفنه فوق قمم الجبال بدلاً من الأمواج، لقد فاق محمد الفاتح بهذا العمل الأسكندر الأكبر»[٢].

وكانت المفاجأة للبيزنط، فقد استيقظ أهل القسطنطينية في صباح ٢٢ إبريل على صيحات المسلمين المدوية، وهتافاتهم المتصاعدة، وأناشيدهم الغليظة العالية، عقب نزولهم في ميناء القرن الذهبي، وأطلوا من فوق أسوارهم فرأوا تحت أعينهم قرابة سبعين سفينة تركية في الميناء برجالها ومعداتها، وانتابهم من الهلع والفزع شيء عظيم، ولم يكتموا إعجابهم بهذه الهمة الإسلامية العظيمة التي أظهرها العثمانيون، وكان ملكهم قسطنطين أشدهم تأثرًا، وقد إزدادت مخاوفة من المستقبل، ومضت الأحداث بعد ذلك على النسق التالي:

---

(١) المصدر السابق (ص١٣٤، ١٣٥).

(٢) المصدر السابق (ص١٣٥).

ـ خلال ليلة واحدة، وهي الليلة التالية على ليلة ٢٢ إبريل، نصب الأتراك جسرًا على الخليج يسمح عرضه بمرور ٥ جنود جنبًا إلى جنب.

ـ أمر قسطنطين إمبراطور البيزنط ليلة ٢٨ إبريل بإبادة الأسطول التركي الذي جاء به محمد الفاتح عن طريق البر، وأنزل إلى الخليج وتدمير الجسر الذي تم نصبه، مهما كلف الأمر.

ولم تنجح هذه المحاولة، فلم يدمر الجسر ولم تغرق سفينة تركية واحدة، وفقد ١٥٠ بحارًا بيزنطيًا في هذه المحاولة.

وهناك أدرك قسطنطين والبيزنط أن المسلمين لهم بالمرصاد، أيقاظ لا رقود، وفرت السفن البيزنطية مذعورة تنشد لنفسها النجاة تلاحقها قذائف المدافع العثمانية، وقبض البحارة على بعض بحارة السفينة البندقية الغارقة وقتلوهم، فانتقم الإمبراطور قسطنطين لذلك، وعلَّق على أسوار القسطنطينية رؤوس مئتين وستين من أسرى المسلمين الذين كانوا فيها، وتملك البيزنط بعد هذه الهزيمة هم شديد ويأس قاتل.

ولم يقف الأمر عند هذا، ولكن الفشل في حرق السفن التركية قد أثار النزاع والخصومة في القسطنطينية بين البنادقة[١]، والجنويين[٢]، وأخذ يكيل بعضهم لبعض أشنع التهم، اتهم الجنويون البنادقة وعلى رأسهم (جاكوموكوكو) بالجهل والتهور وعدم الدراية في قيادة السفن، الأمر الذي أدى إلي تلك النكبة الفاجعة، واتهم النبادقة الجنويين بالخيانة وإفشاء السر إلى الأتراك، فكانت تلك

---

(١) **البنادقة**: أهل مدينة البندقية وما حولها.

(٢) **الجنويون**: نسبة إلى جنوة في إيطاليا.

النكبة، واستحرَّ الخلاف بين الفريقين وكادا يقتتلان لولا أن أسرع إليهم الإمبراطور وناشدهم الله أن يكفوا عن هذا النزاع، ولا يزيدوا المدينة كربًا وبلاءًا على ما وقعت فيه من كرب وبلاء.

وجهز قسطنطين حملة ثانية لحرق السفن العثمانية بقيادة القائد الجنوي جستنيان، ولكنها لم تكن أكثر توفيقًا من سابقتها، ولم يكن من الممكن أن تظل السفن العثمانية والسفن البيزنطية قابعة هادئة في ميناء القرن الذهبي بغير صدام، فما لبث أن نشبت بينهما المعارك تلو المعارك، وتوالت الاشتباكات والاصطدامات يومًا بعد يوم، وكانت سجالاً بينهما.

وكانت المدفعية العثمانية بحق هي السلاح الرئيس الذي من خلاله تحقق النصر، فلم تتوقف عن إطلاق قذائفها خلال هذه الأحداث كلها، بينما يحاول البيزنط إصلاح أسوارها المتهدمة من جراء قذائف المدفعية المتتابعة، وسد الثغرات وإفراغ الخنادق من الأنقاض التي انهارت عليها فملأتها.

الخامس عشر ـ الحصار والقتال

اشتد الحصار المضروب على القسطنطينية، وبدأ أهلها منذ أوائل شهر مايو يشعرون بتناقص الطعام، واضطر كثير من الجنود أن يتركوا مواقعهم ليبحثوا عن طعامهم وطعام عائلاتهم، فأمر قسطنطين بأن يحمل إليهم الطعام في مواقعهم لكي لا تستهدف الأسوار من الأتراك، وكذلك توفير الطعام لعائلاتهم.

وأرسل قسطنطين إلى البنادقة في البندقية يستعجل إرسال النجدة والمعونة إلى القسطنطينية، وذلك حسب إتفاق سابق بينهما، واشتد القلق بقسطنطين واستبدل به الذعر، ونفذ صبره فأعد سفينة صغيرة مسلحة اختار لها اثنى عشر

رجلاً من أمهر البحارة وأشجعهم، وجاء البطريك ورجال الأكليروس فباركوا السفينة ورجالها، ووضعوا فيها صورة العذراء ودعوا لها بالتوفيق والنجاح، ولبس هؤلاء البحارة الملابس التركية كما نصبوا على السفينة العلم العثماني، واستطاعت السفينة بذلك أن تتسلل وتفلت في ظلام الليل من بين السفن التركية الرابضة في بحر مرمرة دون أن تثير أي ريبة، وانطلقت ترتاد بحر الأرخبيل باحثة عن السفن البندقية[1].

في ذلك الوقت، شنَّ العثمانيون هجومًا عنيفًا على أسوار القسطنطينية، واشتد الضيق والكرب على المحصورين، فأشار بعض أهل الرأي وفي مقدمتهم البطريك وجستنيان على قسطنطين بالخروج من القسطنطينية إلى بعض الأمكنة القريبة المجاورة ويستنجد بنفسه هناك من حوله من النصارى، لعلهم يخفون إلى نجدته، ولعله حين يجأر باستغاثته يعجل البابا والبندقية في إرسال سفنهما ونجدتهما إليه، وقد يجد السلطان الفاتح نفسه مهددًا بجيش بيزنطي من خلفه فيرفع الحصار عن القسطنطينية.

ولكن قسطنطين رفض الخروج والتخلي عن شعبه المحاصر، وبعث رسلاً آخرين إلى إيطاليا وأسبانيا وفرنسا وسائر البلاد الأوربية يحملون الكتب إلى أُمرائها وملوكها، بيَّن فيها الخطر المحدق بالقسطنطينية ووجوب المبادرة إلى إرسال المعونة والنجدة قبل فوات الأوان.

وفي الوقت نفسه عمد السلطان محمد الفاتح إلى تشديد الخناق على القسطنطينية من ناحية السور القائم على ميناء القرن الذهبي، ولما رأى أن السفن البيزنطية الكبيرة القوية الراسية في الميناء وتبلغ نحو ثلاثين، قد عاقت سفنه

---

(١) «محمد الفاتح» د/ سالم الرشيدي (ص٩٥).

الصغيرة الموجودة هناك عن تسديد ضرباتها إلى السور، كما وقفت حارسه قوية على السلسلة التي تسد مدخل الميناء، فقد صمم على إغراق السفن النصرانية بطريقة أخرى، فنصب على الهضاب الواقعة خلف (غلطة) مدافع جديدة ضخمة، أخذت تطلق قذائفها إلى الميناء، وقد وقعت إحدى القذائف على سفينة جنوية فأغرقتها في الحال، فذعرت بقية السفن النصرانية، ولاذت تحت أسوار غلطة، وأصبحت بعيدة عن القذائف، واشتكى الجنويون إلى السلطان محمد الفاتح من إغراق سفينتهم، وهم على الحياد حريصون على السلام، وكان الفاتح يعرفُ حقيقة أمرهم وموقفهم من القتال الدائر بينه وبين أهل القسطنطينية، فأجاب بأنه كان يجهل جنسية السفينة المغرقة، وكان يحسبها للعدو، ووعدهم بالتعويض فيما بعد.

توالت هجمات السفن العثمانية على ميناء القرن الذهبي مرة بعد مرة، كما ظل العثمانيون من ناحية البر يهجمون على السور مرة بعد مرة، وكان محمد الفاتح يهدف من وراء استمرار الهجمات وإطلاق القذائف في البر والبحر من غير انقطاع ليلاً ونهاراً إلى إنهاك عدوه وإنهاك قوى المحاصرين، وعدم السماح لهم بالراحة حتى أصبحت نفوسهم مرهقة مكدودة وأعصابهم مرهفة مجهودة تثور وتحتد لأقل شيء، وقد تكرر النزاع في القسطنطينية بين البنادقة والجنويين، وهما قبيلان قد أورثت فيهما التجارة والمغالبة على القوت والربح روح الحقد والتنافس منذ القدم. وكثيراً ما انتهت هذه المنازعات بينهما في القسطنطينية إلى الحرب والقتال في شوارعها فيهرول إليهم قسطنطين، وقد اخضلت عيونه بالدمع ويضرع إليهم ويناشدهم الله ألا كفوا عن هذا النزاع والشجار، وأن ينصرفوا إلى قتال العدو الداهم.

ووقف أحد الرجال يقترح على قسطنطين أن يباغت العثمانيين بهجوم شديد عنيف وينقض على مخازن مؤونهم، فإن ذلك حري بإحياء العزيمة وبعث الهمة بين جنوده، ولكن بقية رجال قسطنطين استبعدوا هذا الرأي، ووصفوه بالتهور، وقال أحدهم[١]:

«إن مثل هذا العمل تهور وخيم العاقبة، لقد مضت خمسة أشهر على نضالنا ونستطيع بعون الله أن نواصل النضال والمقاومة زمنًا آخر طويلاً، إلا إذا كنَّا آثمين نستحق العقاب من الله، فلن تجدينا حينئذ أية مقاومة»

وفيما هم يتحدثون في هذا الأمر ويتشاورون، جاء من يخبرهم أن العثمانيين قد شنوا هجومًا شديدًا على وادي ليكوس، فوثب قسطنطين على فرسه، وأسرع إلى موضع الهجوم حيث كان القتال لا يزال محتدمًا على أشده بين العثمانيين والمدافعين، فاستدعى قسطنطين الجند الاحتياطي إلى هذا الموضع، واستمر القتال إلى آخر الليل، وذهب كثير من الناس إلى الكنائس يصلون ويتضرعون حتى مطلع الفجر عندما بلغهم إنسحاب الأتراك العثمانيين، وكان ذلك في الثاني عشر من مايو.

وبعد يومين نقل محمد الفاتح مدافعه من هضاب (غلطة) وضمها إلى المدافع المنصوبة أمام (طوب قبو) ليضاعف ضربات مدفعيته على أضعف نقطة في السور البري، وقد قاوم المدافعون من الروم واللاتين وحدهم الخطر مقاومة قوية باسلة يواصلون العمل ليل نهار لسد الثغرات وإصلاح الضرر.

---

(١) الدوق نوتاراس. انظر: «محمد الفاتح» د/ سالم الرشيدي (ص٩٧).

السادس عشر ـ الأنفاق العجيبة

لعل من أسباب تحقيق النصر الغالي هو ذهن محمد الفاتح المتوقد دائمًا بالأفكار وفنون الحرب والقتال، سواء أكانت نفسية أو عسكرية.

فذات ليلة سمع المحصورون من أهل القسطنطينية ضربات غليظة شديدة تحت الأرض أخذت تعلو وتقترب شيئًا فشيئًا، كأنها تتلمس طريق الخروج، وحمل الخبر إلى الإمبراطور قسطنطين وكبار رجال الجند، فأسرعوا إلى المكان، وطلب الإمبراطور قسطنطين جميع من في المدينة من المهندسين والفنيين، وكان فيهم مهندس نمساوي حاذق يدعى (جان جرانت)، وأدرك لساعته أن المسلمين قد حفروا نفقًا من خارج السور ليدخلوا المدينة من تحت الأرض، فأمر بأن يُحفر نفقٌ تجاه نفق المسلمين إلى مسافة بعيدة وأمر العمال بعد ذلك بالكف عن الحفر والصعود إلى سطح الأرض، ولبثوا جميعًا ينظرون في سكون ظهور الأتراك العثمانيين، ولم يكن العثمانيون يعلمون شيئًا مما دُبِّر لهم، واستمروا يحفرون وما إن وصلوا إلى الفجوة التي حفرها الروم حتى تملكهم الفرح، وظنوا أنهم اهتدوا إلى سرداب خفي يوصِّل إلى المدينة، ولكن هذا الفرح لم يطل، فلم تكد أعينهم تلمح السماء من خلال الحفرة حتى صبَّ الروم عليهم النار والنفط والمواد الحارقة المهلكة، فمنهم من اختنق واحترق ومنهم مَن فرَّ وعاد أدراجه.

ولكن لم ييأس المسلمون بعد هذا الفشل، فعادوا مرة أخرى للحفر في مواضع مختلفة من المنطقة الممتدة بين أكرى قبو وشاطئ المنطقة الذهبي، إذ كانت هذه المنطقة هي أصلح مكان للقيام بهذا العمل، وظلوا على ذلك حتى أواخر الحصار.

ومهما يكن من نتائج حفر هذه الأنفاق، فإن مجرد علم البيزنطيين بها جعلهم في خوف وقلق، وظن بأن الأمر جد خطير حينما يخرج عليهم من

تحت الأرض من يقضي عليهم، وأصبحت الأنفاق حربًا نفسية أصابت البيزنطيين في مقتل حتى أن كثيرًا منهم صاروا يتسمَّعون بين حين وحين إلى موطئ قدمهم، وكثيرًا ما كان يخيل لهم الخوف أن الأرض ستنشق ويخرج منها جنود مسلمون!!

ورغم أن هذه الأنفاق كلفت كثير من العثمانيين حياتهم، فمنهم من مات اختناقًا، ومنهم من مات احتراقًآ، وبعضهم وقع في أسر جُند بيزنطة، ومع كل هذا فقد زادهم كل هذا إصرارًا وتصميمًا وعنادًا، حتى أن هذه الشجاعة والبسالة أثارت إعجاب أعدائهم من أهل القسطنطينية، كما أثارت الرعب والخوف في نفس هؤلاء أيضًا.

السابع عشر- قلعة الفاتح

في الوقت الذي كان الرعب يخيم على أهل القسطنطينية من الأنفاق وما صاحبها من خوف وإنعدام ثقة لديهم، خرج محمد الفاتح بفكرة جديدة يتجنب من خلالها ارتفاع أسوار القسطنطينية، فقد فاجأهم الفاتح باختراع جديد يعد وسيلة من وسائل الحصار، فقد استيقظ أهل القسطنطينية في صباح الحادي والعشرين من مايو، فإذا بهم يرون أمامهم قلعة ضخمة شامخة من الخشب، أكثر ارتفاعًا وسمكًا من السور الخارجي، ذات ثلاث طبقات قد كسيت كلها بالجلود السميكة المبللة بالماء؛ لئلا تؤثر فيها النار والنبال، وكان في كل طبقة منها عدد من الجنود يحملون القذائف ومختلف معدات القتال، وتحمل في أسفلها التراب والأحجار والأخشاب لردم الخنادق، وفي أعلاها سلالم من الحبال عصبت في أطرافها كلاليب يلقونها على أعلى السور فتنشب فيها ويمر عليها الجند كالقنطرة، بينما النبالة يصوبون نبالهم إلى كل من يظهر رأسه علي السور

من المدافعين، ولم يكن في إمكان هؤلاء المدافعين استعمال مدافعهم الكبيرة فوق السور، لأن اهتزازها عند الإطلاق قد يزلزله ويهدُّه.

وقد هال أهل القسطنطينية أمر هذه القلعة الجبارة، ووقف الإمبراطور قسطنطين ومن معه من أهل مدينة القسطنطينية ينظرون إليها في عجب ودهش وفزع، ولم يدر الناس إلى من يلجأون، فما أصابهم من رعب من العثمانيين الذين يفزعونهم كل يوم بأفكار ومفاجآت، وقد قال أحد المؤرخين[1] البنادقة الذين شهدوا هذه القلعة الجبارة، قال: «لو اجتمع جميع نصارى القسطنطينية على أن يصنعوا مثل هذه القلعة لما صنعوها في شهر، وقد صنعها المسلمون في ليلة واحدة، بل في أقل من أربع ساعات».

أقيمت هذه القلعة تجاه طوب قبو (باب المدفع) والذي كُلِّف بالدفاع عنه القائد الإيطالي الجنوي (جستنيان)، وفرقته المقاتلة، ولم يعد في إمكان المحاصرين في الداخل إصلاح الثغرات الخارجية التي تدكها المدافع العثمانية، لأن هذا القلعة الجبارة واقفة بالمرصاد، بل ساهمت هذه القلعة في دك الأبراج القوية عند (طوب قبو)، واندفع المسلمون نحو هذه الثغرة، واقتربت القلعة من السور، وكان الجنود العثمانيون في هجومهم يصيحون صيحات مرعبة وتسلق كثير منهم السور بالسلالم وحمى القتال واشتد الخطر على المدينة، ولاح للإمبراطور أن الهزيمة في هذه المعركة ستؤدي إلى كارثة، فاستبسل هو وجميع رجاله في القتال، وطلب إحضار مواد سريعة الالتهاب تحرق كل ما يصادفها ولا يطفئها الماء، وأخذ المدافعون يقذفون بها على القلعة الخشبية فما لبثت أن احترقت الجلود المبللة التي تكسوها والتهمتها النار، وكان الليل قد أظلم فتوقف

---

(١) هو المؤرخ البندقي: باربارد.

القتال، وانسحب الأتراك، وابتهج قسطنطين لهذا النصر، وحث أهل المدينة رجالاً ونساءًا وأطفالاً على إصلاح البرج المتهدم.

وما أشرق الصباح إلا وكان قد عاد إلى حالته الأولى من القوة والمناعة، ونظر السلطان الفاتح إلى قلعته الخشبية فإذا هي كومة من رماد، فما زاد على أن ابتسم ابتسامة يكمن وراءها العزم والتصميم، فقال لمهندسه مصلح الدين: «غدًا نصنع أربعًا أخرى غيرها»[1].

الثامن عشر - المعارك الحاسمة قبل الفتح

كانت عملية نقل حوالي سبعين سفينة في ليلة واحدة بمثابة إحكام الحصار البحري حول القسطنطينية، فمن يوم أن نقلت هذه السفن عن طريق البر، وأنزلت في القرن الذهبي تخلخل أقوى دفاعات القسطنطينية، وأصبح الفاتح ينافس عدوه في أشد أنواع أسلحته وهو السلاح البحري.

وكان قصف المدفعية المستمر بمثابة تمويه كبير حتى لا يلفت أنظار البيزنطيين تجاه عملية نقل السفن، ونجحت الخطة في صرف انتباه البيزنطيين والجنويين الذين دهشوا عندما شاهدوا السفن العثمانية داخل القرن الذهبي، وكما ذكرنا فإن الصدمة كانت عنيفة، إذ أن هذه العملية أحدثت إنهيارًا في معنويات البيزنطيين؛ لأن الأسوار في هذه الناحية كانت ضعيفة ولم يكن يعتمد عليها لاستبعاد وصول أسطول معاد داخل الميناء.

وبعد ستة أسابيع من الحصار والقصف، تبلورت مواقع اقتحام المدينة أمام السلطان محمد الفاتح، وهي ثلاث مواضع للهجوم، واقتحام القسطنطينية وهي:

---

(١) ضياء شاكر «فتح استانبول».

أولاً ـ ما بين تقفورسراي وباب أدرنة.

ثانياً ـ في وادي ليكوس عند طوب قبو (باب المدفع)، وهو أكثر المواقع تهدمًا وإنهيارًا من قذائف المدافع.

ثالثاً ـ بالقرب من الباب العسكري الثالث[1].

ومنعًا لمزيد من سفك الدماء، بعث السلطان العثماني رسولاً إلى الإمبراطور البيزنطي قسطنطين، يدعوه إلى تسليم المدينة، وذلك مقابل شرطين هما:

١ ـ أن يخرج الإمبراطور وحاشيته بكل الأموال والذهب، ويذهب إلى شبه جزيرة المورة، ويحكمها تحت سيادة الدولة العثمانية.

٢ ـ ضمان حياة السكان وأمنهم بعد دخول الجيش العثماني إلى المدينة[2].

لكن قسطنطين رفض هذا العرض الذي أرسله له محمد الفاتح مع أمير سينبوب.

التاسع عشر ـ المجلس الحربي

عقد السلطان محمد الفاتح مجلسًا حربيًا لتدارس الموقف الذي وصل إلى ذروة التصعيد، وفي خيمته الضخمة عقد مجلسه الذي حضره وزراؤه وكبار رجال جيشه والشيوخ والعلماء للنظر في (تقدير الموقف) وما يجب اتخاذه، وطلب الفاتح من الحاضرين أن يعلن كل منهم رأيه في حرية وصراحة، فأشار عليه بعض الحاضرين بالمبادرة إلى الهجوم العام على المدينة فورًا قبل أن يتسرب اليأس إلى نفوس الجنود، وقام الوزير خليل باشا الذي كان يميل إلى البيزنطيين وتحدث بإنهزامية ومكر فقال:

---

(١) «محمد الفاتح» د/ الرشيدي (ص١٠٣) طبعة طنطا مصر.

(٢) «فتح القسطنطينية» ـ برناردين كلتي ـ ترجمة شكري محمود نديم. مكتبة النهضة ـ بغداد ـ ١٩٦٢م.

«إن الحمية والحماس شيء جميل يستحق التقدير والثناء، ولكن يجب التريث والتبصر قبل الهجوم على قلعة قوية كالقسطنطينية، فقد حاضرت أكبر الجيوش في العالم هذه القلعة أكثر من سبع وعشرين مرة، انتهت كلها بالخيبة والفشل والهزيمة، والمهم ليس ضرب الحصار على المدينة، بل الاستيلاء عليها، وقد مضى الآن أكثر من أربعين يومًا على حصارنا لها، وبذلنا في ذلك أغلى التضحيات وأفدحها، ولم تبدُ أية بارقة للنجاح، فالأنفاق التي حفرناها لم تجدنا شيئًا والقلاع الخشبية حرقت والمهندسون قتلوا.

وقد كنت أشرت من قبل بدء الحصار أن هذا العمل أمر عسير لن يحقق الغاية التي نريدها، وقد ظهر لكم الآن صدق قولي ورجاحة رأيي بعد أن مضى عليه أكثر من أربعين يومًا، وإذا أحسنا الفرض والظن واستولينا على القسطنطينية فإن شعوب النصرانية كلها ستتألب علينا وتزحف إلينا بجموع لا قبل لنا بها، ولن تدعنا حتى تسترد القسطنطينية من أيدينا، فخير لنا أن نقنع بجزية كبيرة نطلبها من قسطنطين ونرفع الحصار عن المدينة ونعود إلى ديارنا في الوقت الذي نسطيع أن نفعل ذلك في أمان»[1].

نشعر خلال متابعتنا لكلام الوزير خليل باشا بأنه يثبط الهمم، ويلقي باللوم من بعيد على السلطان الفاتح، وأن حديثًا مثل هذا أمام قادة الجيش وصفوة رجال القيادة يثير زعزعة في النفوس تثير الريبة والشك.

ولكن محمد الفاتح رغم رؤيته وريبته في خليل باشا احتوى الأمر، وأجَّل معاقبة خليل باشا، وجعله يكمل حديثه الإنهزامي الماكر إلى النهاية ثم تبسم

(١) الرشيدي (ص١٠٥).

ونظر لزغنوش باشا الذي يعد أحد أبطال حفر الأنفاق، فقد أشرف على حفر الأنفاق تحت أسوار القسطنطينية لاقتحامها من باطن الأرض، وسأله عن رأيه، فقال زغنوش باشا: «حاشا وكلا أيها السلطان، أنا لا أقبل أبدًا ما قاله خليل باشا، فما أتينا هنا إلا لنموت لا لنرجع».

بث هذا الكلام الأمل في نفوس الحاضرين، وكان له وقعًا عظيمًا، ثم واصل زغنوش حديثه قائلاً: «إن خليل باشا أراد بما قاله أن يخمد فيكم نار الحمية ويقتل الشجاعة، ولكنه لن يبوء إلا بالخيبة والخسران، إن جيش أسكندر الكبير الذي قام من اليونان وزحف إلى الهند وقهر نصف آسيا الكبيرة الواسعة لم يكن أكبر من جيشنا، فإن كان ذلك الجيش استطاع أن يستولي على تلك الأراضي العظيمة الواسعة أفلا يستطيع جيشنا أن يتخطى هذه الكومة من الأحجار المتراكمة.

وقد أعلن خليل باشا أن دول الغرب ستزحف إلينا وتنتقم، ولكن ما الدول الغربية هذه؟ هل هي الدول اللاتينية التي شغلها ما بينها من خصام وتنافس، هل هي دول البحر الأبيض المتوسط التي لا تقد على شيء غير القرصنة واللصوصية؟ ولو أن تلك الدول أرادت نصرة يبزنطة لفعلت وأرسلت إليها الجند والسفن، ولنفرض أن أهل الغرب بعد فتحنا القسطنطينية هبوا إلى الحرب وقاتلونا، فهل سنقف مكتوفي الأيدي بغير حراك أوليس لنا جيش يدافع عن كرامتنا وشرفنا؟

يا صاحب السلطة، أما وقد سألتني رأيي فلأعلنها كلمة صريحة: يجب أن تكون قلوبنا قوية كالصخر، ويجب أن نواصل الحرب دون أن يظهر علينا أقل ضعف أو خور، لقد بدأنا أمرًا فواجب علينا أن نتمّه، ويجب أن نزيد هجماتنا

قوة وشدة، ونفتح ثغرات جديدة وننقض على العدو بشجاعة، لا أعرف شيئًا غير هذا، ولا أستطيع أن أقول شيئًا غير هذا».

كانت هذه الكلمات بمثابة برد وسلام أنعش النفوس وأثلج الصدور، وبدت على وجه محمد الفاتح أمارات البشر والإنشراح لسماع هذا القول، والتفت إلى القائد طرخان يسأله رأيه، فأجاب على الفور: «إن زغنوش باشا قد أصاب فيما قال، وأنا على رأيه يا سلطاني».

ثم سأل الشيخ آق شمس الدين والمولى الكوراني عن رأيهما، وكان الفاتح يثق بهما ثقة كبيرة فوافقا على رأي زغنوش باشا وقالا: «يجب الاستمرار في الحرب، وبالعناية الصمدانية سيكون لنا النصر والظفر».

وسرت الحمية والحماس في جميع الحاضرين، وابتهج السلطان محمد الفاتح، واستبشر بدعاء الشيخين بالنصر والظفر، ولم يملك نفسه، حتى أنه قال: «مَنْ كان مِنْ أجدادي في مثل قوتي؟.

أما خليل باشا، فقد خرج من المجلس مخزولاً؛ لأن هذا المجلس كشف ضعفه ووهنه وإرجافه، وتثبيطه لهمم الناس.

واستدعى السلطان الفاتح وزيره زغنوش باشا وقال له: «يجب أن لا نضيع شيئًا من الوقت، فقد دُكت الأسوار وأعدت العدة للهجوم، وتخيرنا مواضعه، فاذهب إلى الجنود وأخبرهم أن ساعة الهجوم قد أزفت، وانظر أثر هذا القول فيهم وارجع إليَّ به».

ذهب زغنوش باشا إلى المعسكر على الفور وجمع الجنود حوله ثم قال لهم: «إن سلطاننا المعظم يرى أن الحصار والغارات التي دامت سبعة أسابيع كافية، وآن

أوان الهجوم العام، ولا أدري متى يُصْدِر أمْرَهُ، وأظنه قريبًا جدًا، لقد حانت الساعة لكي تظهروا شجاعتكم وبسالتكم في هذا الهجوم، ولاريب في أنه يحتاج إلى أعظم الجهد وأكبر التضحيات، فهل أنتم مستعدون؟».

عندئذ هتف الجنود بصوت واحد له دوي بلغ عنان السماء: الله أكبر.

ولما همَّ زغنوش بالعودة إلى السلطان الفاتح، تكلم بعض الإنكشارية وقالوا له: إنَّ لنا رجاء من سلطاننا، فأجاب زغنوش باشا: وما هو؟ قالوا: نرجوا من السلطان أن يطلق سراح إخواننا ورفقائنا الذي كانوا يقاتلون مع (بالطة أوغلو)، وغضب عليهم وسجنهم ليشاركونا فرصتنا بالنصر على العدو إن شاء الله. فقال: سأذكر رجاءكم عند السلطان، وسيعفو عنهم إن شاء الله.

عاد زغنوش إلى خيمة محمد الفاتح الذي كان ينتظره بشوق عارم، وأبلغه الروح العالية لجنوده، فسعد محمد الفاتح سعادة بالغة، وقال لزغنوش باشا: يجب أن يستعد الجيش الآن، وبإذن الله تعالى سنقتحم القلعة، فقال زغنوش: لتكن غزوتك غزوة مباركة يا سلطاني، وليسدد الله خطانا جميعًا.

كان السلطان محمد الفاتح مسلمًا يرعى حق دينه، ويستعين بالله في كل عمل يقوم به، فقد أمر جنوده بالصيام في يوم الأحد ٢٧ مايو ـ أي قبل بدء الهجوم الشامل بيومين ـ وكانت دعوته الجنود للصيام تطهيراً وتزكية للنفوس وتقوية للعزيمة والإرادة.

وتفقد الفاتح في ذلك اليوم سور القسطنطينية من بحر مرمرة إلى القرن الذهبي يتفحص أجزاءه بدقة، ويرى ما أحدثته مدفعيته من ثغرات والمواضع التي تحتاج إلى الدك والهدم. ولم تنقطع المدافع طوال ذلك اليوم، واليوم التالي عن إطلاق قذائفها وبخاصة المواضع التي رممها المحاصرون.

وفي المساء أوقد الجنود العثمانيون النيران والمشاعل والقناديل، وأشعلت الشموع على رؤوس الرماح حول معسكرهم وتصاعد الضوء إلى الفضاء في توهج وتلهب، حتى استحالت السماء إلى قبة حمراء وتعالت صيحات المسلمين وهم يهتفون بأعلى صوتهم: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله».

ودقت الطبول ونفخ في الأبواق وارتفعت الأناشيد الحماسية، وأخذ فريق من الشيوخ والعلماء يقرأون القصائد والأذكار الدينية، ويصف أحد الأساقفة الذين شاهدوا هذا المشهد فيقول: «لو أنك سمعت مثلنا صيحاتهم المتوالية المتصاعدة إلى السماء «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، لأخذتك الروعة والإعجاب»[1].

ونزل الروم من فوق السور وقد تملك قلوبهم اليأس والقنوط، وذهب كثير منهم إلى الكنائس يبتهلون ويتضرعون، وعلا بينهم النحيب والبكاء، وعند منتصف الليل اطفئت النيران والمشاعل في المعسكر الإسلامي وتغشاه ظلام دامس وسكون شامل لم يكونا أقل روعة ورهبة.

وقد قضى السلطان الفاتح اليوم التالي (الاثنين ٢٨ مايو) في وضع اللمسات الأخيرة، وإكمال استعداداته للهجوم فطاف بالسور مرة أخرى يتعرفه وفتش جنوده، ثم قصد إلى مرسى أسطوله في بشكطاس يصحبه حمزة باشا أمير البحر ليطلع بنفسه على ما اتخذه من استدادات، وكان الفاتح كلما مرَّ بجمع من جنده خطبهم وأثار فيهم الحمية والحماس، وكان الشيوخ والعلماء يتلون على الجند آيات القتال والجهاد، وما أعد الله للمجاهدين من حسن الجزاء، ثم يقولون

(١) انظر: «محمد الفاتح» د/ سالم الرشيدي.

لهم: لقد نزل سيدنا محمد ﷺ عند هجرته إلى المدينة في دار أبي أيوب الأنصاري، وقد قصد أبو أيوب إلى هذه البقعة ونزل هنا»[١].

وقد تأثر الجنود بهذه الأقوال، والتهبت حماستهم فسجدوا إلى الله يدعونه أن يتم لهم النصر . . ومن ذلك نتبين مدى الجهد الذي بذله محمد الفاتح ورجاله لرفع معنويات جيشه وتهيئته معنويًا بعد أن تم إعداده عسكريًا إعدادًا جيدًا.

وعاد محمد الفاتح بعد هذه الجولة التي اطمأن فيها على الثغور والجنود والمدافع والقوات البحرية، عاد إلى خيمته حيث مقر القيادة، ودعا إليه كبار قادة الجيش وأصدر إليهم التعليمات الأخيره، وألقى عليهم الخطبة التالية:

«إذا تم فتح القسطنطينية تحقق فينا حديث من أحاديث رسول الله ﷺ ومعجزة من معجزاته، وسيكون من حظنا ما أشاد به هذا الحديث من التمجيد والتقرير، فأبلغوا أبناءنا العساكر فردًا فردًا أن الظفر العظيم الذي سنحرزه سيزيد الإسلام قدرًا وشرفًا، ويجب على كل جندي أن يجعل تعاليم شريعتنا الغراء نصب عينيه؛ فلا يصدر عن أحد منهم ما يجافي هذه التعاليم وليتجنبوا الكنائس والمعابد ولا يمسوها بأذى، ويدعوا القسس والضعفاء والعجزة والذين لا يقاتلون».

وأخلد الجنود إلى الراحة والنوم استجماعًا للقوة والنشاط، واستعدادًا للقتال الذي أوشك على البدء، وخيم على المعسكر الإسلامي سكون عميق شامل أثار دهشة أهل القسطنطينية وأثار بينهم كثيرًا من التساؤل والقلق، وأحس الناس أن عاصفة ستهب قريبًا وأن هجومًا وشيكًا سيقع، فدقت أجراس الكنائس تدعوا الناس إلى الصلاة والدعاء والاستعداد والتأهب.

---

(١) أحمد مختار باشا ـ «فتح جليل قسطنطينية».

العشرون - قسطنطين والخوف

تزايد إحساس الناس في القسطنطينية بالخوف والخطر واقتراب الهجوم العام، فأمر الإمبراطور قسطنطين بإقامة ابتهال عام، فقام موكب من رجال الدين الأرثوذكسي والكاثوليكي والنساء والأطفال والشيوخ وحملوا معهم صور العذراء والذخائر المقدسة وطافوا في شوارع المدينة وهم يبكون وينتحبون ويمزقون شعورهم، وينشدون الأناشيد الدينية الحزينة المشجية ويضرَّعون إلى الله أن يغفر ذنوبهم ويتوب عليهم، وينجيهم من الهلاك، ثم قصدوا إلى أسوار المدينة، فصعد القسس والرهبان ومعهم صور العذراء إلى الشرفات والمواضع العالية، لاسيما عند باب المدفع (طوب قبو)، حيث كانت الثغرات التي أحدثتها مدافع الأتراك واسعة، وغمر نفوس الناس شيء من الهدوء والسكينة ثم خطب قسطنطين في جنوده وكبار رجال دولته، وكانت آخر خطبة له الذي قال فيها:

«أيها المحاربون أعدوا أنفسكم للقتال والتضحية بأنفسكم وأرواحكم في سبيل البلدة المقدسة وفي سبيل النصرانية» ثم أمسك بمقبض سيفه الذهبي واستطرد يقول: «إن الساعة الخطرة الفاصلة التي ارتقبناها منذ أيام قد أزفت، إن الرجل ليقاتل ذوداً عن دينه أو وطنه أو ملكه وأهله وولده، فكيف وقد جاءت هذه الأسباب كلها مجتمعة؟

والقسطنطينية هي معقل النصرانية وملكة المدن، وقد كانت زمنًا ما عاصمة الدنيا، لقد مضت ثلاثة وخمسون يومًا والعدو يحاصر المدينة بكل عتاده وقواه، وقد رددناه عن أسوارنا بفضل الله وبفضل شجاعتكم، وهو يتأهب الآن ليضرب ضربته الأخيرة . . فاثبتوا له كما ثبتم من قبل وادفعوا اليوم عن أسواركم كما دفعتموه بالأمس حتى تخور قواه وينتكص على أعقابه.

أيها الإخوان: إنكم سلالة صناديد أثينا وأبطال روما، فكونوا أهلاً لهذا النسب الرفيع، ولا تخيفنكم صيحات العدو ونيرانه المتصاعدة، وشدوا عزيمتكم واصدقوا في القتال، وإذا كانت للعدو مدافعه وجنوده وفرسانه فإن لنا الله حامينا فلنضع ثقتنا فيه وسيمدنا بقوته ومعونته»[1].

ثم التفت إلى كل من البنادقة والجنويين فشكرهم وأثنى عليهم وحثهم على مواصلة الكفاح وأعلن أنه سيدافع حتى الموت، وأن النصر لهم ما اتبعوا أمره.

ثم توجه إلى كنيسة أياصوفيا، وصلى مع الناس، وكانت آخر صلاة نصرانية في أياصوفيا، ونهض قسطنطين بعد الصلاة وعيونه دامعة واعتذر للناس، وطلب الصفح إن كان قد أصاب أحدًا منهم بسوء أو أذى وبكى الناس لبكائه ونهضوا يتعانقون يستصفح بعضهم بعضًا ويستغفر . . كأنهم في وداع أخير.

وعاد المدافعون إلى أماكنهم عند السور الخارجي، واتخذ الجنود المدرَّعون أماكنهم في الصفوف الأمامية، ونادى المنادي في أرجاء المدينة: «أيها الناس، إن بوادر الهجوم، هجوم الأتراك الأعظم قد لاحت، فكونوا أقوياء أشداء وأسرعوا إلى القلاع وعانوا الجنود الشجعان الذي يدافعون عنها كالأسود».

وقام القسس والرهبان من جانبهم بإلقاء المواعظ على سكان المدينة وبخاصة النساء يحثونهم على الثبات ويبثون في نفسوهم الثقة والطمأنينة قائلين: إن الله قد تقبل دموعنا ودعواتنا وصلواتنا ولن يمكن العدو من مدينتنا وكنائسنا.

وخطب قنصل البنادقة في جنود اللاتين فأثنى عليهم وطالبهم بالدفاع عن دينهم، وما إن اتخذ المدافعون أماكنهم حتى أغلقت جميع أبواب السور

---

(١) الرشيدي (ص١١٢).

الداخلي المؤدية إلى داخل المدينة؛ كي لا يكون هناك مجال للفرار، فإما أن ينتصروا أو يموتوا.

الحادي والعشرون - الهجوم النهائي والفتح

أتم الفاتح استعداداته، ومن جهة البحر أقلعت سفنه من مرساها في بشكطاش واصطفت تجاه السور القائم على بحر مرمرة، وأعدت العدَّة لتسلقه بالسلالم والحبال.

وقبيل منتصف الليل بقليل رزت السماء ردًا خفيفًا من المطر، كأنما كانت ترش الأرض رشًا، فخرج السلطان الفاتح إلى باب خيمته ورفع بصره إلى السماء وقال، وقد سمعه من حوله من الحرس: «لقد أولانا الله رحمته وعنايته، فأنزل هذا المطر المبارك في أوانه، فإنه سيذهب بالغبار ويسهل لنا الحركة».

وفي المقابل فرح الروم واغتبطوا عند ما بدأت السماء تمطر، واعتقدوا أن دعواتهم وصلواتهم قد استجيبت، وأن هذا المطر سيكون وابلاً مدراراً تستوصل منه الأرض، فتصعب الطرق والمواصلات، ويعجز العثمانيون عن الهجوم، لكن المطر لم يدم طويلاً، وما لبث أن توقف وانتشهت السحب، ولمع النجوم في السماء، وخاب رجاء الروم، ولم يبق على بدء المعركة إلا قليل من الوقت.

ومع الساعات الأولى من صباح الثلاثاء (٢٠ جمادى الأولى ٨٥٧هـ - ٢٩ مايوم ١٤٥٣م) سُمعت فجأة من المعسكر العثماني دقة ضخمة بالطبل إيذانًا للجند بالتأهب أعقبها ثلاث دقات أُخرى، ثم تتابعت الدقات في جميع أرجاء المعسكر، ونفخ في الأبواق وتصاعدت التكبيرات مدوية مجلجلة من جانبي البر والبحر، وكان لذلك كله دوي هائل مخيف في ذلك السكون العميق المظلم،

أثار الفزع والرعب في قلوب أهل القسطنطينية، وهرع كثير منهم إلى الكنائس ودقت أجراسها، وانطلق الجنود العثمانيون يهجمون على سور القسطنطينية من البر والبحر.

وكان أشد الهجوم وأعنفه قد ركز وسُدِّد نحو وادي ليكوس القائم بين (طوب قبو) في الجنوب، وباب أدرنة في الشمال، وكان هذان البابان يقعان على ربوة مرتفعة، ويقع الوادي بينهما منخفضًا، وكان السور القائم في هذا الموضع وبخاصة الجانب الذي يلاصق طوب قبو قد تهدم تهدمًا كبيرًا، وأقام جستنيان في مكانه متراسًا قويًا تحصَّن به.

وقد جعل السلطان محمد الفاتح جنوده الذي يقاتلون في هذه المنطقة ثلاثة أقسام:

القسم الأول ـ مؤلف من جنود الروملي والمتطوعين الحديثي العهد بالقتال من أجناس مختلفة، تقدم هؤلاء الجنود إلى الأمام حتى إذا صاروا على مرمى قوس من السور توقفوا وأخذوا يمطرونه بالقذائف والسهام، وردَّ عليهم المدافعون بالمثل، ثم اندفع فجأة تحت هذا الوابل من القذائف من النبال كثير من المهاجمين نحو السور وأقاموا عليه مئات السلالم لتسلقه، فأسرع المدافعون وقلبوا هذه السلام بمن كان عليها، وقذفوا وراءهم الصخور والجلاميد الضخمة.

ولم يمنع ذلك المهاجمين من معاودة تسلق السور مرة بعد مرة ونجح بعضهم في ارتقائه وحدث على انقاضه قتال عنيف رجل لرجل استمات فيه جستنيان وجنوده المدرعون الشجعان، واستطاعوا دفع المهاجمين الذين تكاثرت عليهم ضربات السيوف والرماح والنبال وسقطوا صرعى واستمر القتال على هذه الصورة العنيفة المريرة نحو ساعتين.

وكان السلطان محمد الفاتح يرقب هذه المعركة من فوق صهوة جواده ويدرك شدة بأس المدافعين وقوة مراسهم وحسن موقعهم المرتفع الذي يقاتلون فيه، ويصبون منه نيرانهم وقذائفهم على من تحتهم من المهاجمين. وكان السلطان محمد الفاتح يرمي بهذا الهجوم إلى إرهاق المحصورين وإنهاك قواهم واستنزاف طاقاتهم قبل أن يضربهم الضربة الشديدة القاضية، فأمر جنوده بعد نحو ساعتين من هذا القتال العنيف بالإنسحاب، ودفع إلى الهجوم.

القسم الثاني- من جنوده وهم جنود الأناضول، أما المدافعون فقد ظنوا لأول وهلة عند إنسحاب المهاجمين أن الأتراك قد دحروا ونكصوا على أعقابهم وعدلوا عن مواصلة القتال، ولكنهم لم يكادوا يتنفسون الصعداء حتى بوغتوا بهجوم أشد وطأة وعنفًا من الهجوم الأول، فقد كان جنود الأناضول أحسن تنظيمًا وتدريبًا وأكثر مراسًا في القتال.

وانهزم الظلام أمام النور، وكانت أشعة الفجر قد بدأت تنير المكان، واندفع هؤلاء الجنود يهجمون على السور وقد لبس بعضهم الدروع وهم يكبرون بصوت كهزيم الرعد، وأقام كثير منهم السلالم للتسلق وأدرك قسطنطين خطر الموقف فأتى إلى هذا المكان بمزيد من الجند وآلات الرمي والقذائف ونصب المدافع الصغيرة، ونشط جستنيان وجنوده المدرعون الشجعان وقاوموا هذا الهجوم العنيف مقاومة عنيفة مستميتة، وصبوا قذائفهم ونيرانهم الحامية على المهاجمين وقلبوا السلالم التي أسندت إلى السور، ولكن ذلك لم يزد العثمانيين إلا حماسًا وشدة في القتال.

ووقف الفاتح على ظهر حصانه (جامبولات) يرقب هذا العراك الدامي العنيف، وكان أشد القتال يجرب على السور نفسه حيث التحم المهاجمون والمدافعون في صراع بالأجساد وتردد النصر بين الفريقين، ولكن القذائف

والسهام تهطلت علي الأتراك بغير هوادة، وتهاووا صرعى إلى الأرض فأمر السلطان محمد الفاتح بسحب جنوده واستعمال المدافع مرة أخرى، فنصبت في أقرب مكان من السور، وزحف الجنود العثمانيون تحت ستار الدخان والغبار، وهجموا مرة أخرى على السور، ولكن جستنيان وجنوده المدرعين الشجعان ثبتوا لهذا الهجوم أيضًا . . !!

وبينما كان القتال يجري هكذا عنيفًا مريرًا عند السور البري، كان هناك قتال آخر لا يقل عنفًا وشدة على جانب البحر، فقد أخذت السفن العثمانية التي يقودها أمير البحر حمزة باشا في بحر مرمرة والسفن العثمانية الراسية في القرن الذهبي أمكنتها من السور وأخذ الجنود يطلقون عليه قذائفهم ونبالهم وأخذ فريق منهم يتسلقونه بالسلالم والحبال وغيرها من أدوات التسلق، والتحموا في صراع عنيف مع المدافعين الذين هبوا إلى قذف السلالم في البحر وإطلاق النيران والسهام والقذائف على العثمانيين.

وأصاب هذا الهجوم أهل القسطنطينية بالفزع والرعب، فعلت أصواتهم بالدعاء والضراعة ودقت أجراس الكنائس دقات شديدة متوالية، على أن هذا الخطر قد أثار في الأهلين من جهة أخرى روح المقاومة والكفاح، ولم تتخلف النساء عن الاشتراك في أعمال الدفاع، فأخذن يغلين الزيوت ثم يحملنها إلى الأسوار لتصب على المهاجمين والذين يتسلقون السور منهم خاصة، ولكن ذلك لم يضعف عزيمة المسلمين الذين كانوا يندفعون في الهجوم بغير مبالاة وهم يرددون بكل قوة: الله . . الله.

واستمر الصراع على جانبي السور البحري على هذا النحو من الشدَّة والعنف إلى آخر الحصار، وإذا كان العثمانيون لم يفلحوا في اقتحام المدينة من

هاتين الناحيتين، فإنهم قد شغلوا عدداً كبيراً من المدافعين الذين كان يمكن استخدامهم لتقوية الدفاع من جانب السور البري.

أما جنود الأناضول اللذين يهاجمون وادي ليكوس، فقد أمرهم السلطان محمد الفاتح بالانسحاب، وكان المدافعون قد بلغوا من التعب والجهد والإعياء أقصى مداه، ولم يكن الفاتح يرمي من هذه الهجمات المتواصلة إلا إرهاق المدافعين وإجهادهم واستنزاف طاقتهم وقواهم قبل أن يضربهم الضربة الأخيرة القاصمة.

واغتبط جستنيان وجنوده بإنسحاب الأتراك وارتفعت صيحات الفرح والنصر من جوانب السور، وقال جستنيان للإمبراطور قسطنطين وقد طفح وجهه بالبشر: «يا صاحب الجلالة اطمئنوا فإن سيوفنا قد ردت العدو»، ولكن الفاتح لم يتركهم يستريحون، فلم يكد يسحب جنوده من السور حتى أطلقت عليهم مدافعه قذائفها القوية المدمرة، وجاء بالقسم الثالث..

القسم الثالث ــ من جنوده وهم الإنكشارية، وكانوا خير الجند تدريبًا وحنكة وبسالة، وقد كان تنفيذ خطة الهجوم هذه المرة أكثر إحكامًا ودقَّة، وكان الشيوخ والعلماء يشجعونهم ويحرضونهم على صدق القتال والجهاد، وكان الصبح قد أضاء وأمكن رؤية كل شيء بسهولة ووضوح.

وقاد الفاتح بنفسه هؤلاء الجنود إلى حافة الخندق، وهناك أمر الرماة والنبالة بأن يمطروا المدافعين بالنبال السهام بحيث لا يقدر أحد منهم أن يطل برأسه من فوق السور، وتحت هذا الوقاء من النبال المنهمرة الكثيفة انطلق الإنكشارية وهجموا على السور كالأسود، وكان هجومًا هائلاً مريعًا اهتزت له جوانب القسطنطينية، وفي مثل لمح البصر أقام كثير منهم السلالم وقفزوا منها إلى أعلى

السور في خفة مدهشة، وكانت تكبيراتهم العالية ودقات الطبول الضخمة وطلقات المدافع الشديدة، كان كل يحدث دويًا يصم الآذان ويلقي الرعب والفزع في نفوس أهل القسطنطينية، وتعالت منهم أصوات الدعوات والضراعة لحماية القسطنطينية ونجاتها من الأتراك، وعلت أصوات أجراس الكنائس وسرى الحماس في نفوس كثير من الناس وصاحوا بأعلى أصواتهم: إلى الأسوار، ساعدوا المدافعين.

في هذه الأثناء كان القائد الجنوي جستنيان، يتنقل من موضع إلى موضع يبعث الحماس والقوة في جنوده، ويضرب لهم المثل بنفسه ويقول لهم: لقد صددنا هجمات العدو من قبل، وسنصدها الآن أيضًا.

وحمى وطيس القتال والمعركة، وبلغ أقصى مداه من العنف والشدة لاسيما عند طوب قبو (باب المدفع) وباب أدرنة، وأصبحت الساعة الحاسمة على الأبواب، فإما أن تنهار المقاومة ويفتح العثمانيون القسطنطينية، وإما أن يردهم البيزنطيون على أعقابهم.

ويذكر المؤرخون[1]: أن هذه المعركة شهدت أروع صور البسالة والاستماتة من الجانبين، فمن ذلك أن جنديًا من الإنكشارية يدعى (حسن طوباتلي) زحف في نحو ثلاثين من رفقائه الفدائيين، وقد أمسك كل منهم السيف بيمينه والترس بيساره، لم يبالوا النبل والقذائف التي انهمرت عليهم كالمطر من فوق السور، والتي صرعت ثمانية عشر منهم، وتسلق حسن طوباتلي وبقية رفاقه السور فأسرع إليهم المدافعين من المدرعين ونشب بينهم صراع عنيف، وقد أظهر

(١) المؤرخ البيزنطي فرانتزتس ـ انظر: «محمد الفاتح» د/ الرشيدي (ص١١٨).

(حسن) بسالة نادرة في القتال وأصيب هذا الجندي الشجاع بقذيفة قوية أوقعته إلى الأرض، ولكنه نهض على ركبتيه وظل يقاتل في حماس وحمية، وتكاثر عليه الأعداء وخرقته الرماح والنبال فخرَّ صريعًا بعد أن أظهر أن الطريق إلى اقتحام المدينة قد تمهدت، وأن الوصول إلي أعلى السور قد أصبح ميسورًا.

وفي هذه اللحظات كان المسلمون أكثر حماسًا فضاعفوا الجهد، وشددوا الهجوم، وكان من أثر ذلك أن أُصيب (جستنيان) القائد الجنوي بجرح غائر عجز عن احتماله فقرر الإنسحاب من ميدان المعركة لتضميد جراحه، وطلب إلى الإمبراطور قسطنطين أن يتولى القيادة مكانه، وفزع قسطنطين من هذه المسئولية التي ألقاها على عاتقه جستنيان، وراح يرجو جستنيان أن يظل مكانه ولا يترك مكانه حتى لا يثبط عزيمة الجند في وقت هم أحوج ما يكونون إلى من يشد أزرهم، وأن مصير المدينة كلها متوقف على موقفه، ولكن (جستنيان) أصرَّ على أن ينقل في الحال إلى سفينته الراسية في الميناء، وقد سأله الإمبراطور قسطنطين: وكيف السبيل إلى الانتقال إلى سفينته، فأجاب جستنيان: سأتبع الطريق التي فتحها الله للعثمانين.

ونقل القائد الجنوي إلى سفينته الراسية وراء السلسلة في القرن الذهبي، ومن هناك نقل إلى جزيرة خيوس حيث مات هناك، وقيل أنه قد مات قبل وصولها إليها، ولقد كانت لوفاته أثرًا حزينًا مؤسفًا على جنوده المدرعين، وحاول قسطنطين النهوض بمعنوياتهم فقال لهم: «إني سأتولى قيادتكم بنفسي، لقد انهزم العثمانيون (الأتراك) في الباب الشمالي، وسنهزمهم أيضًا ونردهم على أعقابهم، فما عليكم إلا أن تثبتوا قليلاً وتنالوا بعده النصر المؤزر، ولأجزلن العطاء والمكافأة بعد ذلك».

وازداد هجوم الإنكشارية عنفًا في هذه المنطقة، وارتقى كثير منهم أنقاض السور وثبتوا أقدامهم فيها، واشترك السلطان محمد الفاتح بنفسه في هذه المرحلة الأخيرة من الصراع، فاجتاز الخندق بحصانه وأخذ يدير القتال بنفسه، ولاشك أنه قد لحظ الارتباك الذي انتاب صفوف المدافعين عقب إنسحاب جستنيان، فانتهز هذه الفرصة وشدد وطأة الهجوم عليهم، ولكي يزيد محمد الفاتح حماس جنده أعلن أنه قد أباح لهم نهب المدينة ثلاثة أيام[1].

ولم يمض وقت طويل على تولي قسطنطين القيادة بعد إنسحاب القائد الجنوي جستنيان ووقوفه عند طوب قبو (باب المدفع) حتى انطلقت من جهة الشمال للسور صيحات عالية مفزعة ما لبثت أن سرت في جميع أنحاء المدينة وهي تدوي وتنبئ بدخول الأتراك المدينة، ولم يصدق قسطنطين هذا إلا عندما التفت شمالاً فوجد الأعلام العثمانية ترفرف على بعض الأبراج القديمة من باب أدرنة.

وكان يقود القوات العثمانية في هذه المنطقة قره جه بك، وقد حاول قبل ذلك اقتحام هذا الباب ففشل، فجمع قواته وشنَّ عليه هجومًا آخر أشد عنفًا وقوة، فزحزح المدافعين عن أماكنهم ووثب جنوده على أنقاض السور المتراكمة إلى جنوب هذا الباب، وتمكَّن أحدهم من قتل قائد الحامية، وبمقتله إنهارت مقاومة المدافعين وولوا هاربين، وتدفقت جموع العثمانيين نحو المدينة.

فلما رأى قسطنطين الأعلام العثمانية المرفرفة ركض نحو فرسه نحو الشمال ليستخبر عن الأمر، فإذا جموع الأتراك تتدفق إلى المدينة كالسيل، فنزل قسطنطين عن حصانه وخلع ملابسه الإمبراطورية وسل سيفه وأخذ يضرب به ذات اليمين وذات الشمال حتى كلَّت يده وأصابه أحد الجنود الأتراك بضربة

(١) «تاج التواريخ» سعد الدين.

سيف قاتلة فخر صريعًا، وصاح صائح بأن الإمبراطور قد قتل، فزاد ذلك في فزع الناس ورعبهم، ولم يقف شيء بعد ذلك في وجه الأتراك لدخول المدينة، فقد تفتحت لهم جميع الأبواب والمنافذ بعد أن فرَّ حماتها وذهبوا يلتمسون النجاة لأنفسهم، واشتد الهرج والمرج في المدينة، واختلط الحابل بالنابل وتزاحم الناس يدفع بعضهم بعضًا كل يطلب النجاة لنفسه ولا يدري أين يجدها[١].

ومن جانب البحر فقد أخذ العثمانيون من فوق سفنهم الراسية في بحر مرمرة والقرن الذهبي يناجزون المدافعين، وظلو على ذلك إلى أن رفعت الأعلام العثمانية فوق الأبراج القائمة على السور البري، ورآها المدافعون فخارت قواهم وإنهارت عزائمهم، فاستسلم البعض وفر البعض، ولم يجد المهاجمون العثمانيون اللذين ازدادوا حماسًا وحمية عند رؤيتهم الأعلام العثمانية المرفرة أي صعوبة بعد ذلك في اقتحام المدينة.

الثاني والعشرون - مروءة المنتصر

وقف السلطان محمد الفاتح على صهوة جواده (جامبولات) ينظر إلى جنوده وهم يدخلون المدينة من كل صوب، فقد دخلو مدينة القسطنطينية الخالدة، ورفعوا أعلام الإسلام إيذانًا بالنصر والفتح، وكان يمسك بلجام فرس الفاتح حارسه (قللي يوسف)، وأقبل كبار رجال الفاتح وقد علت وجوههم فرحة النصر، يهنئونه بالنصر والفتح وكل منهم يقول له: لقد بارك الله في جهادك يا سلطاني، فكان محمد الفاتح يجيب قائلاً: «حمدًا لله، ليرحم الله الشهداء ويمنح المجاهدين الشرف والمجد ولشعبي الفخر والشكر»[٢].

---

(١) «محمد الفاتح» الرشيدي (ص ١٢٠).

(٢) المصدر السابق (ص١٢١).

وقد دخل العثمانيون القسطنطينية عنوة وبالقوة بعد حرب ضروس وقتال مرير، بل إن كثيرًا من الأهالي والجنود تركوا مراكز دفاعهم في الأسوار، ثم صعدوا إلى أسطح المنازل وأخذوا يقذفون منها الأحجار الضخمة وقطع الحديد المحمية والأخشاب المشتعلة، ولم يجد المسلمون بدًا من مقاتلتهم، وأصبحت المدينة بذلك غنيمة للفاتحين كما تقضي بذلك قوانين الحرب في ذلك العهد وكما يقضي الإسلام، وأفاء الله عليهم مغانم كثيرة وأسرى وسبيًا كثيرًا من الرجال والنساء.

وعند الظهيرة توجه السلطان محمد الفاتح إلى القسطنطينية على ظهر جواده يحف به كبار رجال دولته وحرسه، وقد أعجبته المدينة بآثارها الرائقة ومبانيها الضخمة، وكان ألوف من العثمانيين يحيطون بهذا المركب السلطاني ويهتفون بين حين وحين: ما شاء الله، ما شاء الله، ليحيى سلطاننا .. ليحيى سلطاننا.

ولما بلغ الفاتح منتصف المدينة توقف عن السير وقال لمن حوله من الجند: «أيها الغزاة المجاهدون، حمدًا لله وشكرًا، لقد أصبحتم فاتحي القسطنطينية»، وقرأ عليهم الحديث النبوي الشريف: «**لتفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش**».

وبفتح القسطنطينية سقطت الإمبراطورية البيزنطية بعد أحد عشر قرنًا ونصف تقريبًا، ومن المفارقات الملفتة للنظر: أن القسطنطينية بناها الإمبراطور قسطنطين الكبير وافتتحها رسميًا في الحادي عشر من شهر مايو عام ٣٣٠ ميلادية[1]، وأنها سقطت في عهد إمبراطور يحمل الاسم نفسه، وهو قسطنطين الحادي عشر، وأن

(١) عاشق باشا «زاده تاريخي» (ص١٤١، ص١٤٢).

محمداً الفاتح دخلها في الثلاثين من مايوم عام ١٤٥٣، وهو الشهر نفسه الذي افتتحت فيه، وبعد مرور ١١٢٢عام.

وهنأ محمد الفاتح جنوده بالنصر ونهاهم عن القتل والنهب والسلب، وأن يكونوا أهلاً للشرف الذي حباهم به الرسول ﷺ.

وترجَّل الفاتح عن فرسه واستقبل القبلة وسجد على الأرض وحثا التراب على رأسه شكراً لله على ما منحه من توفيق ونصر، ثم استأنف سيره إلى كنيسة أيا صوفيا، ولما اقترب منها وصلت إلى مسامعه أصوات خافته حزينة هي أصوات الصلوات والدعوات التي كانت تجري فيها، وقصد الفاتح إلى أحد أبواب الكنيسة، وكان باباً منيعًا حصينًا فوجده مغلقًا، فلم علم الراهب بمقدمه أمر بفتح الباب على مصراعيه، وانتاب الناس خوف عظيم وفزع لحضور السلطان وتوجسوا شرًا، وانقطعوا عما كانوا فيه من الصلاة، وساد بينهم لجب ولغط، فما كان من الفاتح إلا أن طلب من الراهب أن تستمر الصلاة كما كانت من قبل، وأن يبقى كل إنسان في مكانه دون أن يجزع، وتمت الصلاة في هدوء وأمان، وسجد الفاتح مرة أخرى يشكر الله ويحمده ثم طلب إلى الراهب أن يأمر المصلين بالعودة إلى منازلهم آمنين على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، وأن يعود كل إنسان إلى ما كان يمارسه من قبل من عمل وحرفة، ونزل هذا الكلام برداً وسلامًا على هؤلاء الناس الذي كانوا يتوقعون أن ينزل بهم أشد أنواع البطش والتنكيل، وشاعت في نفسوهم الراحة والطمأنينة، وبعث الفاتح إلى مختلف أرجاء المدينة نفرًا من رجاله لتأمين الناس وليعودوا إلى حياتهم العادية.

وفيما كان الفاتح يطوف بأرجاء كنيسة أياصوفيا الكبيرة الفسيحة إذا به يسمع قرعًا ونقرًا من ورائه، والتفت فإذا جندي من جنوده يضرب بآلة وفي يده عمودًا

من المرمر كانت معلقة عليه إحدى الصور المقدسة، واقترب منه الفاتح وقال له غاضبًا: «ما عملك هذا؟» فأجاب الجندي الأُمي بكل بساطة: ألست مسلمًا؟ أُريد محو آثار الكفار!، فقال له الفاتح: «ليس من الحق تخريب المعبد»، وخطف منه الآلة وضربه بها على رأسه.

وكان نفر من الرهبان مختبئين في سراديب الكنيسة خوفًا من القتل، فلما سمعوا بما فعله الفاتح وحسن رعايته للنصارى خرجوا من أماكنهم وأعلنوا إسلامهم، وعرف أحدهم وكان أكبرهم سنًا باسم بابا محمد[١].

وعلم محمد الفاتح بمقتل قسطنطين فدفنه في احتفال يليق بمكانته ومنزلته[٢]، وسأل محمد الفاتح عن جستنيان، فعلم أنه أصيب ويعالج في سفينته الراسية بميناء القرن الذهبي، فأرسل الفاتح من فوره بعض رجاله في طوب قبو للبحث عن السفينة التي يرقد فيها جستنيان وإنزاله من البر وإحضار أحذق الأطباء لتطبيبه وتضميد جراحه، وقد كان السلطان الفاتح جنديًا عظيم النفس يكرم البطولة، ولو كانت في ألد أعدائه، وكان قد أظهر إعجابه بجستنيان عندما كان يدافع عن السور بحذق ومهارة وبسالة.

وسلك السلطان محمد الفاتح نحو أهل القسطنطينية سياسة التسامح والرأفة، وأمر جنوده بحسن معاملة من في أيديهم من الأسرى والرفق بهم، وقد بذل الفاتح كل ما في وسعه لتخفيف آلامهم وفك أسرهم، وفدى عددًا من كبار الأسرى بماله الخاص[٣].

---

(١) أحمد مختار «فتح جليل قسطنطينية».

(٢) الرشيدي عن الأب دي كبيه السيوعي «كشف المكتوم».

(٣) «تاريخ سلطان محمد خان ثاني» قريتودولوس.

ويقول المؤرخون: إن السلطان محمد الفاتح قد حنا على أهل القسطنطينية حُنُوَّ الوالد الشفيق العطوف على ولده، وكان كثير من السكان قد فروا من المدينة عندما دخلها العثمانيون خوفًا من القتل، فأصدر الفاتح بيانًا عامًا دعا فيه هؤلاء الفارين إلى العودة إلى مدينتهم كلٌ إلى منزله، وأمنهم على حياتهم وأموالهم وأن يعود أهل التجارة والحرف إلى أسواقهم، ومزاولة أعمالهم ومهنهم، ووعدهم بحرية العبادة وممارسة شعائر دينهم.

الثالث والعشرون - معاملة الفاتح المنتصر للأعداء والأصدقاء

كان السلطان محمد الفاتح يعلم أن الروم قوم شديدوا التمسك بالدين، فرأى أن خير ما يجمع شملهم ويشجعهم على العودة والاطمئنان إلى حكمه، هو أن يظهر العناية بالناحية الدينية، وكانت البطريركية إذ ذاك شاغرة، فعمل على تنصيب بطريرك رومي جديد بنفس المراسيم الضخمة التي كانت تتبع في عهد الأباطرة الأول، واجتمع الأساقفة وانتخبوا جناديوس بطريكًا لهم، وقد كان من أقوى المعارضين لإتحاد الكنيستين وأشدهم عداءً له، وبعد انتخابه ذهب في موكب حاف من الأساقفة إلى القصر الذي كان فيه الفاتح، فاحتفى به أعظم احتفاء وبالغ في تكريمه والترحيب به، وتناول معه الطعام على مائدته وتحادث معه حديثًا طويلاً، ثم قدَّم إليه بعد ذلك عصا البطريركية وقال له: «إنَّك البطريرك وليحفظك الله، واعتمد دائمًا على صداقتي ومودتي وتمتع بكل ما كان يتمتع به سلفك من الحقوق والامتيازات».

ولما همَّ البطريرك بالانصراف نهض الفاتح ورافقه إلى باب القصر وأعانه على ركوب الجواد المطهم الذي أُعد له، وأمر وزراءه وكبار رجال دولته أن يصحبوه إلى مقرِّه الذي هُيئ له، وقد تأثر البطريرك لما لقيه من السلطان محمد

الفاتح من بالغ الحفاوة والتجلّة وشعر بشيء من الخجل، فقال للسلطان: إن الأباطرة النصارى لم يفعلوا قط مثل هذا لمن سبقه من البطاركة.

ولم يكن الروم أنفسهم أقل تأثرًا ودهشة من بطريركهم، فقد كانوا يحسبونه فاتحًا بربريًا سفاكًا غادرًا لا يرعى للدين حُرمة ولا يفهم للإنسانية والتسامح معنى، ولكنهم وجدوا فيه من السماحة والدماثة والأريحية ما لم يروا مثلها من قبل، فلم يسعهم إلا أن رفعوا أيدهم إلى السماء يسألون الله أن يبارك لهم في السلطان الجديد[١].

وأصدر الفاتح فرمانًا بعد ذلك للبطريرك أمنه فيه على شخصه، وجعله في رتبة الوزراء وعهد إليه بالنظر في أمور الروم من الناحيتين الدينية والمدنية كالزواج والطلاق والميراث، وأصبح البطريرك بذلك زعيمًا دينيًا وسياسيًا لشعبه، وباستيلاء الفاتح على القسطنطينية قضى على ما كان فيها من المنازعات والمشاحنات التي طالما أثارت الفتن وأراقت الدماء، وحرَّم السلطان الفاتح اضطهاد النصارى تحريمًا قاطعًا، ولم يميز في تسامحه ومعاملته بين أحد منهم على إختلاف عقائدهم ومذاهبهم بل جعلهم كلهم سواء وأظلهم جميعًا بعدله ورعايته، وقد طلب إليه بعض المتعصبين الجهلة قتل الروم وإبادتهم إذا لم يدخلوا في الإسلام، فأبى ذلك عليهم وقال: إنه إن فعل ذلك يخالف تعاليم القرآن[٢].

ولم تمض بضعة أيام على فتح القسطنطينية حتى ساد الأمن والسكينة ربوع المدينة واستأنف الناس حياتهم المدنية العادية في اطمئنان وسلام.

---

(١) «محمد الفاتح» د/ سالم الرشيدي (١٢٦).

(٢) المصدر السابق.